مروان ماجد مكارم

إلى متى ؟

روايـة

* ملاحظة : هذه الرواية ليستْ سرداً لسيرةٍ ذاتيّةٍ وإنْ وجدَ تشابهٌ أو تطابقٌ بين أسماءِ شخصيّاتها و أُخرى في الواقع فسيكونُ ذلكَ من قبيلِ الصدفة .

قراءة ممتعة

مع تحيات يحيى الصوفي

مؤسس ورئيس تحرير موقع

القصة السورية

SyrianStory

الإهداء :

إلى رفيقةِ العمرِ . .إلى من ساهرتني

ترقبُ بشغفٍ اللحظةَ التي يخرجُ فيها

هذا العملُ إلى النورِ. . إلى بشرى . .

مروان

صالةُ الانتظارِ في عيادةِ الطبيبِ مكتظّةٌ فيتخلّى أحدُ الشبّانِ المرافقُ لأمّهِ عن كرسيّهِ لتجلسَ عليهِ زوجتي..وأجدُ نفسي خارج باب العيادةِ أُشعلُ سيجارةً وأرى ذلك الشاب المهذّبَ قد لحقَ بي وأخرجَ علبةَ سجائرَ مهرّبةً ليشعلَ سيجارتهُ وهو يقول:

-" هذه هي المرّةُ الأولى التي أُحضرُ فيها والدتي إلى هنا.. هل جرّبتم هذا الطبيبَ سابقاً ؟ "

-" نعم , تراجعُهُ زوجتي باستمرارٍ..لديها آلامٌ دائمةٌ في الرقبة.. لكنَّ عشرات العبواتِ من الأدويةِ لم تُجدِ نفعاً حتّى الآن.."

أنظرُ سعالَ أحدِ المرضى بفارغِ الصبرِ لأمارسَ طقوسي المعتادةَ.. بدأَ يسعلُ الآنَ فلأقول :

-" لا بدَّ أنَّ دخاننا قد بدأ يزعجهم .. سأضطرُّ للنزولِ إلى الشارع."

يرمي الشابُّ سيجارته ويهرسُها بقدمِهِ بينما أنزلُ الدرجَ المؤدّيَ إلى الشارع و أقفُ على الرصيف متابعاً التدخين .. سأنتظرُ ساعةً أو أكثرَ ريثما يحين دور زوجتي في المعاينة ..

أتمشّى قليلاً نحو اليمين لأتوقّفَ عندَ جذعِ شجرةِ الزيزفونِ الهرمةِ .. أتلمّسها وأتفقّدُ معالمها .....

لم أكن أعلمُ أنَّ النسيانَ مستحيلٌ أحياناً , واعتقدتُ أنَّ الزمنَ كفيلٌ بمسحِ كلِّ الذك ريات .. سبعةَ عشرَ عاماً مرّتْ وكأنّها لم تمضِ .. ويومُ الاثنينِ المشؤومُ يعيدُ نفسهُ في دوّامةٍ لا تنتهي , كأنّهُ نوّاسٌ لا يتخامدْ ..

آهٍ يا قمر .. هذه الزيزفونةُ تلقي بظلالها عليكِ و يتوارى بريقُ عينيكِ خلفَ أغصانها المتدلّيةِ التي تداعبها نسماتُ حزيران اللطيفةُ فلا أرى إلاّ دموعاً سالتْ عل ى خدّيكِ وقطرتْ من جانبي ذقنكِ لتصلَ إلى قلادةٍ ظهرَ بعضُ أجزائها من بين طيّاتِ قميصكِ و قد ميّزتُ فيها حروفاً من كلماتٍ غريبةٍ لم أفهمها .. شفاهكِ المرتجفةُ تقولُ هامسةً :

- " انتهى كلُّ شيءٍ .. لم أعدْ قادرةً على تحمّلِ هذه المآسي ! "

- " بلى , نستطيعُ معاً أن نبني عالمنا الذي نحلمُ بهِ .. انظري حولكِ ! هل ترين كلَّ هؤلاء

الأشخ اص ؟ كلٌّ منهمكٌ في تحقيق أحلامهِ ..
انظري إلى تلكَ الفتاةِ ! إنها تراقبنا منذ وصولكِ
إلى هنا .. ربّما كانتْ تنتظرُ حبيباً .. شاهدي
ذلكَ التفاؤلَ في عينيها .. لو أنّها تعلمُ بما
تفكّرين قد تأتي لتأنيبكِ ! "

- " لا أستطيعُ محاربةَ كلِّ من أحبّهم .. أبي ,
أمّي , أخوتي , كلّ الناس .. "

- " لقد مرَّ كلُّ شيءٍ بهدوءٍ .. وتجاوزنا العديدَ من
الصعابِ , فلماذا تقفلينَ الأبوابَ الآنَ ؟ أين هي
التضحيةُ التي حدّثتني عنها كثيراً ؟ أين هو
حبّنا؟ أين أنا من كلِّ هذا ؟ "

- " لقد فكّرتُ مليّاً في الأمرِ .. و اتّخذتُ قراريَ
النهائيَّ : لم يكتبِ القدرُ أنْ نكونَ معاً ..
أرجوكَ .. دعني بسلامٍ ! أنتَ تعذّبني بهذه
الطريقةِ .. هل تريدُ شيئاً منّي الآنَ ؟ "

– " هل تريدُ شيئاً منّي الآنَ ! .. أريدُ أنْ أسألكِ عن امتحاناتكِ ."

– " لا أعتقدُ أنّني سأنجح ! وخاصّةً في اللغة العربيّة.. "

قلتِ ذلكَ وأسرعتِ في مغادرتي دونَ التفاتةِ وداعٍ .. كأنّكِ تهربين من عينيَّ .. و وجدتُ نفسي عاجزاً عن الكلام .. أريدُ أن أناديكِ فلا أقدرُ !

أنظرُ إلى تلكَ الفتاةِ التي كانت تراقبنا بفضولٍ فيُخيّلُ إليَّ أنَّ عينيها تأمرني باللحاقِ بكِ .. أُخرجُ علبةَ السجائر من جيبي و أشعل سيجارةً وأتنفسها بعمقٍ وأنا أراقبُ مغيبكِ في زحامِ الشارعِ المقابلِ .. شيءٌ ما مبهمٌ كان يبقيني مستسلماً وربّما كان هذا شعوراً راودني منذ اللحظةِ الأولى لتعرّفي إليكِ بأنّكِ مستحيلةٌ .. وشيءٌ آخرُ يتمتمُ في خاطري لألحقَ بكِ فأستجيبُ ..

أعرفُ وجه ةَ سيركِ .. ستقصدينَ محطّةَ الباصات ..
أبحثُ عن شكلكِ بين الفتياتِ المُ دْبراتِ .. أُسرّعُ من خطواتي وأعثر على شقراءَ و شقراءَ و شقراءَ .. أرى كلَّ الفتياتِ قد أصبحن شقراواتٍ .. أصلُ إلى نهاية الشارعِ المزدحمِ فلا أجدكِ ! أستقلُّ سيارةَ أجرةٍ إلى محطّةِ البلصات ..

هناكَ كنتِ تجلسينَ على مقعدٍ خشبيٍّ قديمٍ ..
تستقبلينني بابتسامةٍ خائفةٍ .. أجلسُ على مقعدكِ لأكتشفَ أثناء جلوسي أنّني لازلتُ أحملُ في يدي كيساً صغيراً فيه هديّةٌ لكِ .. زجاجةٌ من عطر الليلك ورسائلُ و قصائدُ ..

– " لماذا لحقتَ بي إلى هنا ؟ ألم أقلْ لكَ إنّني أصبحتُ تحتَ المراقبةِ ؟ هل تريدُ إيذائي ؟ "

– " نسيتُ أن أقدّمَ لكِ هديّتي . "

– " وهل هي ككلِّ الهدايا السابقةِ ؟! "

في الليلةِ السابقةِ للقائنا نسختُ لكِ على دفترٍ صغيرٍ منمّقٍ كلَّ رسائلي وقصائدي السابقةِ لاعتقادي بأنَّ حبَّنا يعشّشُ فيها .. بل إنّني وجدتُ نفسي قد حفظتها جميعاً , الرسائلَ و القصائدَ .. كلُّ حرفٍ فيها يحضرني فأردّدُها عندما أكونُ وحيداً , و أكثرُ الأحيان أردّدها أثناءَ سفري في الحافلاتِ فأختارُ الجلوسَ بجانب النوافذِ و أتأمّلُ معالمَ الطريقِ التي تسيرُ في الاتّجاهِ المعاكس مردّداً قصائدي .. أحسُّ أنَّ هذا نوعٌ من أداءِ الواجبِ .. أجيبُ بصوتٍ مخنوقٍ :

– " لا , هذه المرّةُ هديّتي مميّزةٌ عن سابقاتها ! "

تتظاهرينَ بعدم الاكتراثِ :

– " ألم تكتبْ شيئاً ؟ حسناً .. هذا أفضل ! لم يعدْ هناكَ من شيءٍ يُكتبُ ! "

قلتِ ذلك كطفلٍ يقرأُ مسرحيّةً لشكسبير .. كلماتكِ لم يكن لها وقعٌ مناسبٌ كأنّها كانتْ حشواً في جريدةٍ أو ملءَ فراغٍ في مقابلةٍ تلفزيونيّةٍ ..

- " في الواقع .. نسختُ لكِ كلَّ رسائلي
وقصائدي السابقةِ .. و .. و كتبتُ لكِ رسالةً
جديدةً . "

دموعكِ من جديدٍ تغادرُ عينيكِ وكأنّها تعرفُ طريقها
نحو تلكَ القلادةِ .. و استطعتُ هذه المرّة أن أقرأَ
بوضوحٍ ما نُقشَ عليها .. اسم خطيبكِ و اسمكِ يتعانقان
حولَ رسمٍ لقلبٍ صغيرٍ يتوسّطها .. أنظرُ إليها و أسألُ
ساخراً :

- " لماذا لم تُحفرِ الأسماءُ داخلَ القلبِ ؟ هل
يعني هذا أنّكما خارج الحبِّ ؟ "

تجيبين متهكّمةً :

- " هكذا أرادَ الصائغُ ! "

وصلَ الباصُ فهجمَ الركّاب يتدافعون عند بابِهِ ..
تنتصبينَ وتجمعينَ أغراضكِ وتضعينَ كيسي داخلَ
حقيبتكِ ثمَّ تنطلقينَ من دون أن أستطيعَ النظرَ إليكِ

لكنّني شعرتُ بكِ تمرّينَ من خلفي و تغادرين صالة الانتظار ..

لم أدرِ كم بقيتُ ملتصقاً على ذلكَ المقعدِ الخشبيِّ لكنّني اكتشفتُ أنّني أنهيتُ هناك ما تبقّى من علبة السجائرِ وكان عليَّ شراءُ أُخرى قبل السفر إلى قريتي .. في باصِ القريةِ أُحسُّ وجوهَ الركّابِ غريبةً رغمَ أنّهم جميعاً من قريتي .. أمُّ عبد الله في المقعدِ المقابلِ ترنو إليَّ بنظ رةِ حنانٍ فلِخالُها على علمٍ بكلِّ الأمر .. أحسستُ برغبةٍ شديدةٍ في الارتماءِ على صدرها والإجهاشِ بالبكاءِ .. رحتُ أتأملُ في ملامحها .. ثوبها , أناملِها المتشابكةِ , أغراضها إلى جانبِها , كيسٍ من الكعكِ , مكنسةٍ شاميّةٍ , كيسٍ كبيرٍ محشوٍّ بأشياءَ مجهولةٍ وظهرتْ من قمّتهِ حافّةُ منخلٍ خشبيٍّ صغيرٍ .. أشاغلُ نفسي في تفقّدِ ملامح الركاب الآخرين محاولاً تناسي ما حدثَ , لكنّني أستسلمُ في النهاية لاجترار ه ..

أستذكرُ رسالتي الأخيرةَ فأُغمضُ عينيَّ وأسمعُ صوتي يقرأها كمن يتدرّبُ على أداءِ دورٍ مسرحيٍّ :

" أشتاقُ إليكِ .. أشتاقُ وأشتاقُ .. ويلاحقني طيفـُكِ ألفَ مرَّةٍ في اليوم , و يحضرني وجهكِ كلَّ لحظةٍ .. أحبّكِ , أعبدكِ و أحتاجُ إليكِ .. أحبّكِ أكنتِ خطيبةَ صديقي أم زوجةَ أبي ! .. نحنُ يا فتاتي لا نمثّلُ روايةً دراميّةً ينبغي على الأبطالِ فيها العذابُ والفراقُ ثمَّ اللقاءُ أو التنائي .. إنّما نعيشُ حبّاً حتميّاً و يتوجّبُ علينا أن نكونَ معاً إلى آخر العمرِ .. هناكَ صعوباتٌ اعترضتنا وتعترضنا ولن تنتهي .. وهناكَ بالمقابلِ تفاؤلٌ بغدٍ مشرقٍ .. ولا يزالُ الأمرُ بين يديكِ .. تستطيعينَ أن تقرّري من جديدٍ .

لن أتحدّثَ ع ن العذابِ و اللوعةِ بل عن المستقبلِ الذي يتوجّبُ علينا بناؤه و التمتّعُ بإنشائه معاً .. تبّاً لكلِّ الأقدار إن كنتِ تعتقدينَ أنَّها مكتوبةٌ سلفاً لتفرّقَ بيننا ! ضعي يدكِ بيدي لنواجهَ كلَّ الأشرارِ و امنحينا الوقت

الكافي لنستعيدَ التنفّسَ ثانيةً لأنّك ستخرقيننا بسفركِ ..
بل إنّكِ تقدرين على تأجيلِ السفرِ ريثما نجدُ حلاً ..
نستطيعُ الهروبَ إلى أيِّ مكانٍ حيثُ نتزوّجُ ونرغمُ كلَّ الأشرار على الرضوخ والقبول ! اقبلي بهذا وتعالي في المرّة القادمة لتردّدي هذه القصيدة كما يحلو لي أن تردّديها :

ستقولين : – ها قد رجعتُ
و في الروحِ شوقٌ عتيٌّ إلى عينيكَ
و دفءِ ذراعيكَ
فأقــولُ : – يا أنتِ ! ما أحلاكِ !
لستُ أعشقُ إلاّكِ !
وستقولين:– حطّمتُ يأسي ..
عبرتُ دربَ المستحيلْ
مزّقتُ أوراقَ الرحيلْ
أنتَ أُنسي , ولا بديلْ
هاتِ اسقني ! منكَ الحياةْ

ونـــشـوتي .. و الذكرياتْ

أينَ اللقاءْ ؟

فأقــولُ : – تحتَ أوراقِ الخريفِ لقاؤنا

فوقَ الرّيحِ ..

خـلـف عـذابِ جـراحِـنا

و على دروبِ الحبِّ موعدُنا

يا بسمةً فوقَ الشفاهِ منتظره

يا دمـعةً بين الرموشِ منسيّه

يا أنّةً في أقاصي الحُلمِ مندثره

قمري تعودُ .. و زُفَّــتِ البشرى

أرجو أنْ أراكِ مجدّداً يوم الخميسِ القادمِ .. أرجوك , افعلي شيئاً لأجل حبّنا .. توقّفي عن تجاهلِ نفسكِ .. لا تستسلمي للضياعِ فلا زال الأملُ موجوداً , وسيكونُ كلُّ شيءٍ على ما يرامُ . أرجوك , تعالي يومَ الخميس لتثبتي أنّكِ سيّدةُ نفسِكِ و أنّكِ لنْ تسمحي لأحدٍ أنْ يقرّرَ

بالنيابةِ عنكِ .. سأنتظرُ كِ يومَها تحتَ شجرتنا .. تعالي ولا تخشي شيئاً .. أُحبكِّ . "

يمرُّ الباصُ من أمام المدرسة التي التقينا فيها للمرّة الأولى في درسي الأولِ في صفّكِ .. التفاصيل كلُّها محفورةٌ في ذاكرتي : دخولكِ إلى الصفِّ متأخّرةً , صوتكِ الناعمُ , نظرتكِ الخجولةُ , عيناكِ الخضرا وان , هنداماكِ المميّزُ , شفاهكِ القرمزيّة التي رسمتْ ابتسامةً ساحرةً و أنتِ تهمسينَ :

- " هل تسمح لي بالدخول يا أستاذ ؟ "
- " هل أنتِ في هذا الصفّ ؟ "
- " نعم , و لكنّني من قريةٍ بعيدةٍ , ووسائلُ النقلِ غير منتظمةٍ كما تعلمُ ... "

أشيرُ لكِ بالدخول فتتوجّهين مباشرةً إلى المقعدِ الأخيرِ وتجلسين إلى جانب سحر .. تتهامسان فور جلوسكِ ثمَّ تسوّينَ جلستكِ بحركةٍ توحي أنّ كِ أصبحتِ جاهزةً للإصغاءِ فأقولُ مخفياً لهفتي :

– " كنّا نتعارفُ قبل مجيئكِ .. أنا رعد , مدرّسُ اللغة العربيّةِ .. و أنتِ .. ما اسمكِ ؟ "

– " قمر . "

– " اسمٌ على مسمّىً ! "

يضحكُ الطلابُ فأجدُ لزاماً عليَّ أن أُضيفَ :

– " كلُّكم أقمارٌ . "

أبدأُ بشرحٍ موسّعٍ عن منهاج اللغةِ العربيّةِ وأُنهي بمراجعةٍ سريعةٍ لبعضِ القواعد وإعرابِ المفرداتِ والجملِ .. وألاحظُ أنّكِ من عدادِ المتفوّقين .. كنتُ أسترقُ النظرَ إليكِ بين كلِّ عبارةٍ وأُخرى .. وكانَ وجهُكِ أوّلَ شيءٍ أنظرُ إليه عند استدارتي نحو مقاعدكم منتهياً من كتابةِ شيءٍ ما على السبّورةِ .. كنتُ أتوقّفُ عن الكلام فجأةً ناظراً إلى عينيكِ ..يا لبدعة الخالق ! شيءٌ سحريٌّ فيهما يشدُّني , وشيءٌ مبهمٌ في داخلي يردعني ويذكّرني بأنّه ينبغي أنْ أتصرّفَ

كمدرّسٍ فاضلٍ ! أُحاولُ إخفاءَ مشاعري , لكنَّ الشيءَ الذي لم أستطعِ التقلّصَ منهُ هو النظرُ إليكِ باستمرارٍ .

في اليومِ الثاني أكتشفُ خاتم خطبةٍ في إصبعكِ لمْ ألحظهُ بالأمس ! الصعقةُ الأولى! أسألكِ :

– " أأنتِ مخطوبةٌ ؟! "

لم يأتني الردُّ منكِ بل من سحر ذاتِ الصوتِ الأجشِّ :

– " و (كتابها مكتوبٌ) أيضاً ! "

ابتلعتُ حسرتي وسارعتُ لإخفاءِ ردّةِ فعلي ولم أجدْ سبيلاً إلى ذلكَ سوى السؤال ممارساً دوراً تربويّاً :

– " وهل يجيزونَ لكم لبسَ الخواتم في المدارس؟"

تجيبُ سحر أيضاً :

– " نعم , إذا كان خاتم خطبةٍ .. ولا يُسمحُ لنا بخواتم الزينةِ , هكذا قالت الموجّهةُ . "

أعودُ إلى غرفتي يومها محاو لاً إقناعَ نفسي بأنّكِ مستحيلةٌ وأنّكِ لن تكوني الفتاةَ الثالثةَ في حياتي ..

وأتذكّرُ كلامَ سهيل , أحد أصدقاء الطفولة , عندما كنّا نلعبُ لعبةَ (البلاطات السبع) وكان يُمنحُ كلُّ فريقٍ ثلاثَ محاولاتٍ لقذفِ برجِ البلاطات بالكرة .. كان يقول لي عندما أستنفدُ كلَّ محاولاتي فاشلاً في تحقيقِ إصابةٍ :

- " أزحْ من رأسكَ فكرةَ أنَّ المحاولةَ الثالثةَ يجبُ أنْ تكونَ ناجحةً حتماً , فقد تحتاجُ إلى عشراتِ المحاولاتِ لتنجحَ ! والمهمُّ ألاّ تيأسَ ! "

أنتِ بحكمِ المتزوّجةِ ولستُ جاهزاً بعدُ للزواجِ أو للارتباط بفتاةٍ , فقد أنه يتُ للتوِّ الخدمةَ العسكريّةَ وباشرتُ عملي كمدرّسٍ حديثاً , ولا بدَّ أن يكونَ خطيبُكِ قدْ تجاوزَ كلَّ هذه المراحلِ ولن أستطيعَ منافستَهُ .. وهكذا رحتُ أختلقُ المبرّراتِ لنفسي للابتعادِ عنكِ , لكنَّ ما حدثَ يوماً جعلني أدركُ بأنّكِ صرتِ شيئاً خاصّاً بالنسبةِإليَّ :

- " أينَ قمر ؟ "

تجيبُ ذاتُ الصوتِ الأجشِّ :

- " لن تتمكّنَ من الحضور اليومَ ! لقد ذهبتْ لتودّعَ خطيبها في المطار .. سيسافر ظهراً . "

- " إلى أين ؟ "

- " إلى الكويت .. لقد أمضى عطلة الصيف هنا وسيغادر اليوم . "

- " وهل ستلحقُ به ؟ "

- " بعدَ امتحانات الشها دة الثانويّة , هذا إنْ نجحتْ وعندها سيعودُ ليتزوّجا ويسافرا معاً .. "

بعدَ الامتحانات .. المهلةُ كافيةٌ .. لكنْ توقّفْ أيُّها الأستاذُ الكريمُ ! هذه طالبةٌ وأنتَ مدرّسٌ ولا ينبغي أنْ تأخذَ من تفكيركَ كلَّ هذا الحيّزِ .. فكّرْ في البحثِ عن أُخرى !

لكنّني لم أبحثْ عنكِ لأبحثَ عن أُخرى .. كنتِ صدفةً في حياتي و لا قدرةَ لي على خلقِ الصُّدفِ .. وها أنا الآن أفتقدُ حضوركِ في صفّي وأجدني ألفظُ اسمكِ

عدّةَ مرّاتٍ طالباً من زميلاتكِ المشاركةَ في الدرسِ أو الإجابةَ على أسئلتي .. وعندَ كلِّ هفوةٍ كانتْ سحر الخشنةُ تبتسمُ ساخرةً وتدوّرُ عينيها يميناً ويساراً ! هل تراها اكتشفتْ أمري أم أنَّ هذا طبيعيٌّ ؟ هل يحدثُ هذا مع مدرّسين آخرين ؟ هل أُعجبَ بكِ أو أحبّكِ أحدٌ غيري ؟ إنَّ فتاةً مثلَ كِ ستكونُ محطَّ إعجابِ الكثيرين لكنَّ كونكِ مخطوبةً سيقلّلُ عددَ المغامرين , هذا إنْ لم يفكروا على طريقتي !

أبدأُ منذ ذلكَ اليومِ بالتفكيرِ كالمراهقين ! ماذا لو كنتِ تحبّينَ خطيبك و ترفضينَ التخلّيَ عنهُ ؟ من أنا لأنتزعَ فتاةً من حبيبها , فقط لأنّني أحببتها ؟ ماذا لو أنَّ حبّيَ لكِ بقي من طرفٍ واحدٍ كما حدثَ معي سابقاً ؟ أسئلةٌ كثيرةٌ تراودني و أعجزُ عن إيجادِ الأجوبةِ !

في اليوم التالي أدخلُ إلى صفّكِ .. لستِ هناكَ أيضاً ! ترمقُني سحر بنظراتٍ مبهمةٍ كأنّها تنتظرُ منّي سؤالاً عن غيابكِ لكنّني أمنعُ نفسي عن ذلكَ .. أستغرقُ وقتاً

للتوقيعِ على دفترَي التوقيعِ والتّفقّدِ .. كنتُ سأثبّتُ غيابكِ لولا أنّكِ طرق تِ البابَ ودخلتِ .. أنظرُ إليكِ فأُحسُّ تغيّراً في ملامحِ وجهي ..

- " أهلاً .. أهلاً .. تفضّلي .. مشكلةُ المواصلاتِ أيضاً؟ "
- " نعمٌ يا أستاذُ .. هذا هو الحالُ دوماً في الدرسِ الأوّلِ . "
- " و كيفَ تستطيعُ سحر الحضورَ باكراً ؟ أليستْ من قريكِ ؟ "
- " بلى , لكنّها تحضرُ معَ... "

تقاطعكِ سحر :

- " أحضر معَ شقيقي على درّاجتهِ الناريّةِ .. إنّهُ في الصفِّ الحادي عشر . "
- " وأنتِ , أليسَ لديكِ درّاجةٌ ؟ "
- " بل لا شقيقَ لديَّ ! لي أختان فقط ! "

أشرحُ فقراتِ الدرسِ شارداً في تعابير وجهكِ المريحةِ..
ألفظُ كلماتي و كأنّني آلةُ تسجيلٍ .. لساني في وادٍ
وعقلي في وادٍ آخرَ .. أحاولُ قراءةَ وتفسيرَ هذا
الارتياح الواضحِ لديكِ .. لستِ كمن ودّعتْ خطيباً
حبيباً ! ما معنى هذا ؟ أتكونينَ معتادةً على حضورهِ
وسفرهِ ؟ ثلاثَ مرّاتٍ أحاولُ الاقترابَ منكِ لأسألكَ شيئاً
و ذلكَ الشيءُ نفسه يعودُ ليردعني ويأمرني بضبطِ
النفسِ وعدمِ الانسياقِ وراء عواطفي بهذه السرعةِ ,
وهاجسٌ آخرُ يحثُّني على اغتنام الوقت .. أعودُ
للسيطرةِ على ذاتي و أُلزمُ نفسي بالتركيز على إعطاء
الدرسِ .. مادتي بحاجةٍ إلى تركيزٍ كبيرٍ ويجبُ أنْ
أكونَ مثاليّاً في إيصالِ المعلوماتِ للطلبةِ فأُقرّرُ أنَّ
للعواطفِ مكاناً آخرَ سأبحثُ عنهُ .
يحضرُ مديرُ الثانويّةِ إلى قاعةِ المدرّسينَ ويطلبُ إليَّ
القدومَ إلى مكتبه .. و هناكَ يقدّمني إلى الأستاذ وليد
مدرّسِ مادّةِ الكيمياء ويقولُ إنّهُ من خارجِ المحافظةِ

ويبحثُ عن سكنٍ و يسألني إمكانيّةَ استضافتهِ في غرفتي ريثما يؤمّنُ مكاناً للإقامةِ فأوافقُ . وسرعان ما يتعمّقُ تعارفنا منذُ اليومِ الأوّلِ و أُحسُّ بحاجةٍ لوجودهِ معي فأرجوه أنْ يعدلَ عن فكرة البحثِ عن سكنٍ مستقلٍّ ليبقى شريكاً لي في غرفتي :

- " لقد حضرتُ إلى هذه البلدة قبلَ بدءِ الدوامِ بأسبوعٍ وعدتُ إلى قريتي في اليومِ الأوّلِ من دونِ العثورِ على سكنٍ مناسبٍ . وأعدتُ المحاولةَ في اليومِ الثاني ثمَّ الثالثِ حتّى وُفّقتُ في استئجار هذه الغرفةِ .. وكما ترى , فهي للنومِ والاستقبالِ والطبخِ ولتحضير الدروسِ وللسهرِ .. وسيكونُ الاستحمامُ أيّامَ الخميس مساءً عندَ العودةِ إلى ديارنا , أو نتدبّرُ ذلكَ في الحمّامِ الخارجيِّ غير المسقوفِ ! ما رأيكَ ؟ "

يتمتّعُ وليد بروحِ الدعابةِ , وسرعةِ التأقلمِ مع الآخرينِ , لكنّني اكتشفُ منذُ اليومِ الأوّل أنّهُ يخفي هموماً

وأسراراً حزينةً خلفَ ابتسامته الدائمةِ , وأنّهُ يخشى الوحدةَ لأنّها تضفي عليه جوّاً من الكآبة , ولذلك فهو يحبُّ الاختلاطَ والتعارفَ و بناءَ الصداقاتِ .. ويَفهمُ المجتمعَ على أنّه مكونٌ من عناصرَ كيميائيّةٍ تتفاعلُ فتُنتج عناصرَ جديدةً .. وهو بذلكَ مصابٌ بهوسِ الكيمياءِ حتّى أنّها تسيطرُ على معظم حديثه!

استطعتُ أن أُخفي عن وليد ما أشعرُ به نحوكِ , وتلهّفتُ مراتٍ عديدةً لإخباره بذلكَ لكنّني في كلِّ مرّةٍ أكظمُ لهفتي و أكتمُ السرَّ ..

يمرُّ شهران ونحن نتبادلُ النظراتِ الخفيّةَ , وأستمتعُ باستراقِ النظرِ إليكِ فأراقبكِ و أتفحّصكِ و أنتِ تقرئين أو تكتبين أو تفكّرين أو تسرعين من دون استئذانٍ للإجابةِ على تساؤلٍ أطرحه .. و أقرأُ في عينيكِ سعادةً غامرةً و ارتياحاً عارماً لوجودي في صفّكِ ..

أعودُ كلَّ يومٍ إلى غرفتي لأمارسَ مهنةَ التفكير و عادةَ الأرقِ وكلَّ ما لازمني مذ رأيتكِ ! و ينه الُ عليَّ وليد

كلَّ مساءٍ بفيضٍ من أسئلتهِ المحلِّلةِ و لا أجدُ حجّةً إلاّ في الأحوالِ المادّيّةِ فيقول :

- " سيكون هذا هو حالنا دوماً ! ولا تظنّنَّ أنّكَ ستصبحُ مليونيراً في يومٍ ما ! أنسيتَ أنّكَ مدرّسٌ؟"

لكنّهُ يستدرجني في إحدى سهراتنا إلى البوح عندما أصحّ حُ أوراقَ الاختباراتِ الخطّيّةِ فيقولُ بصوتهِ الهادئِ :

- " أرى أنّكَ توقّفتَ طويلاً عندَ هذه الورقةِ .. ثمَّ قرأتَها عدّةَ مراتٍ دون أن تضعَ أيّةَ إشارةٍ .. هل تبحثُ عن أخطاءٍ فلا تجدها ؟ "

- " في الواقعِ .. لا أدري من أينَ أبدأُ ! "

- " إنْ كنتَ متردّداً دعْ ها وصحّحْ غيرها ثمَّ عُدْ إليها فيما بعد . "

كان وليد مهتمّاً بتحضيرِ دروسِ اليومِ التالي , وكنتُ أُدركُ أنّهُ يراقبني إذ أضعُ ورقتكِ جانباً ثمَّ أعودُ للنظرِ

إليها من جديدٍ .. وكان يتجاهلني حيناً ويختلسُ النظرَ إليَّ حيناً آخرَ و أنا ألتفتُ إليها عاجزاً ع ن تصحيحِ أُخرى! فيزيحُ دفترهُ من أمامه ويقولُ بصوتٍ ممزوجٍ بالحزنِ والعتابِ :

– " ألن تخبرني ما قصّةُ هذه الورقةِ ؟ "

ثمَّ يتناولُ ورقتكَ و يقرأُ اسمَكِ و يضيفُ متابعاً :

– " أو بالأحرى ما قصّةُ صاحبةِ هذه الورقةِ ؟! "

ثمَّ يستطردُ بلهجةِ المكتشفِ :

– " آه .. ه ذه الفتاةُ من شعبة الأدبيِّ .. لا أعرفها.. أهي حلوةٌ ؟ "

كأنّني كنتُ أنتظرُ سؤاله على أحرَّ من الجمرِ لتتفتّحَ قريحتي بالإجابةِ , فلم أحاولْ تجاهلَ سؤالهِ ولم أستطعْ إخفاءَ أيِّ شيءٍ عندي , و كأنّني طالبٌ متفوّقٌ تلقّى سؤالاً من مدرّسٍ وأرادَ أنْ يُظهرَ بر اعتَهُ في الإجابةِ :

- " حلوةٌ ؟ هي أكثرُ من حلوةٍ ! هي قمرُ الأقمارِ !
هي سيّدةُ الجميلاتِ ! إذا تحدّثتْ تفتّحتْ
أزاهيرُ الجنّةِ .. وإذا سكتتْ توقّفتِ البلابلُ عنِ
الشّدوِ .. وإذا مشتْ أوحتْ إليكَ بترانيمَ
موسيقيّةٍ .. وإذا هزّتْ رأسها تحرّكتْ نسائمُ
العطرِ .. وإذا أزاحتْ غرّتها عن جبينها أشرقتْ
شمسُ الشموسِ.. انظرْ إلى خطّها ! ألا ترى أنّها
مخفيّةٌ خلفَ السطورِ ؟ ألا ترى جديلتَها وعينيها
وشفتيها في كلِّ جوابٍ كتبتْهُ ؟
- " واللهِ لا أرى شيئاً مما تقولُ ! ولكن , على
فرضيّةِ أنّني أراه فماذا يعني هذا ؟ "
- " بلغتِكَ التي تفهمها : هذه معادلةٌ كيميائيّةٌ
جديدةٌ عليكَ ولم تختبرْها من قبلُ .. طرفها
الأوّلُ معروفٌ (قمر + رعد) لكنَّ طرفَها الثاني
مجهولٌ , و ... "

- " منْ قالَ لكَ إنّه مجهولٌ ؟ تستطيعُ يا صديقي أنْ تفترضَ أيّةَ نتيجةٍ وتبحثَ عن إثباتِ العكسِ , فإنْ نفدتْ كلُّ الاحتمالاتِ كانتْ فرضيّتُكَ صحيحةً ! هذه طريقةٌ في الكيمياءِ عندما يكونُ الناتجُ مجهولاً . "

- " أنتَ تسخرُ منّي ولكنّكَ ترشدني بكلامكَ هذا إلى طريقةٍ في معالجةِ الأمرِ ! "

- " تعالَ أولاً ندرس الصعوباتِ .. ما المشكلةُ ؟ "

- " إنّها مخطوبةٌ , و .. و (كتابها مكتوبٌ) . "

أخذَ نفساً عميقاً و نظرَ إليَّ و هوَ يحكُّ ذقنهُ مكوّراً شفتيهِ كمن أوشكَ على إطلاقِ صفْرةٍ .. ثمَّ قالَ :

- " هكذا تتعقّدُ المعادلةُ ! "

تحدّثنا كثيراً حولَ الأمرِ حتى فوجئنا بصياحِ الديَكةِ فنظرَ وليد إلى ساعته وقالَ :

- " الخامسةُ والربع ! ويحكَ ! كيفَ سنصحو غداً؟"

أجبتُ بلهجةٍ ممدودةٍ :

– " اخلدْ أنتَ للنومِ ! وسأبقى مستيقظاً . "

– " أنتَ تنسى دوماً أنْ تحضرَ المنبّهَ من بيتكم .. لن أعتمدَ عليكَ بل سأشتري واحداً عندما أسافرُ الخميسَ القادمَ .. تصبحُ على خيرٍ ! "

استسلمَ وليد للنومِ سريعاً , بينما أمسكتُ ورقتَكِ من جديدٍ ورحتُ أتأمّلُ .. لكنتِ موجودةً فعلاً بين السطورِ .. ولعلّكِ لاحظتِ أو قرأتِ مشاعري فدسستِ شيئاً بين كلماتها .. أقرأُ وأقرأُ من دون التوصلِ إلى شيءٍ ..

أفكّرُ مليّاً وأتوصّلُ إلى شيءٍ أكرهُ هُ : لقد لاحظتِ ميلي نحوكِ واهتمامي الشديدَ بكِ , لكنّكِ تفسّرينَ ذلك على أنّه ميلُ المدرّس نحو طالبةٍ متفوّقةٍ احتلَّتْ مكانةً خاصّةً لديه ! فالأمرُ طبيعيٌّ ..

لكنَّ ما حدثَ في اليوم التالي جعلني أُسقطُ ذلك من حساباتي : أخرجُ من صفّكِ .. نظرةٌ أخيرةٌ إلى عينيكِ .. تلحقينَ بي .. أسمعكِ تناديننني .. أجمدُ

مكاني بلا حراكٍ .. لا بدَّ أنْ يكونَ الأمرُ خاصّاً و إلا لكنتِ طرحتِهِ داخلَ الصفِّ .. ألتفتُ لحظةَ وصولكِ خلفي .. إخالُ أنّني سألاقيكِ بأحضاني فأكبّلُ يديَّ مكانهما من خشيةِ أنْ تفلتا لألتفّا حولكِ .. تناوليني دفتراً صغيراً مزخرفاً يشبه القلبَ .. تضطربُ دقّاتُ قلبي .. يصيبني الرجفانُ .. تحدّقينَ بي وتفهمين ارتباكي , لكنّكِ تسارعين إلى القولِ بلهجةٍ خجولةٍ :

– " هل بالإمكانِ أنْ تكتبَ لي شيئاً على الأوتوغراف ؟ "

– " طبعاً , طبعاً .. لكنْ هل أستطيعُ الاحتفاظَ به إلى وقتٍ آخرَ لأنَّ وقتَ الدرسِ قد حانَ و .. "

– " بالتأكيد ! خذ وقتكَ يا أستاذ ! "

تمنحينني فرصةً ذهبيّةً ووقتاً كافياً .. سأكتبُ لكِ الآنَ كلَّ شيءٍ .. و سأطلبُ أنْ أراكِ في مكانٍ ما ! .. مهلاً .. مهلاً أيُّها المدرّسُ الناجحُ ! إنّها طالبةٌ في صفّكَ ولا يتوجّبُ أن تكتبَ لها حرفاً خارجَ الإطارِ الترب ويٍّ ..

ماذا لو كانتْ تقصدُ السخريةَ و التلاعبَ ؟ ماذا لو كان تصرّفها هذا عبثَ الطلبةِ ؟ كان ينبغي عليكَ أنْ تكتبَ لها سطراً على مرأىً من الجميعِ و أثناءَ وقوفها قبالتكَ من دون الحاجة إلى استبقاءِ دفترها لديكَ ! هذا ما جالَ في خاطري و أنا أراقبُ خطواتِكِ ا لعائدةَ إلى الصفِّ ممسكاً دفترِكِ بيدي , وعيونُ عشراتِ الطلبةِ الذين أطلّوا برؤوسهم من أبوابِ الصفوفِ ترمقني بنظراتٍ متباينةِ التفسيرِ , وكذلكَ عيونُ زملائي وزميلاتي في الممرِّ الطويلِ , لكنّني أدسُّهُ في جيبي وأتوجّهُ نحوَ صفّي متجاهلاً كلَّ ذلك ..

أثناءَ الاستراحةِ في قاعةِ المدرّسين تردّدتُ في إخراجه من جيبي لأنّني أحسستُ أنَّ الجميعَ يراقبونني بعيونٍ فضوليّةٍ , لكنَّ جلوسَ وليد إلى جانبي شجّعني لأهمسَ في أذنهِ :

– " لقد أعطتني دفترَ أوتوغراف لأكتبَ لها ذكرى وسأعودُ إلى صفّها الحصّةَ القادمةَ فماذا أفعلُ ؟

– " دعْ ذلكَ حتّى نعودَ إلى الغرفةِ فربّما كتبتْ لكَ شيئاً بطريقةٍ ما . "

عدتُ إلى صفّكِ وشاهدتُ ترقّبكِ و لهفتَكِ لاستعادةِ دفتركِ لكنّني تجاهلتُ هذا واستبقيتُه مستقرّاً في جيبي ! وحالَ وصولي إلى غرفتي فتحتهُ وقلّبتُ صفحاتِهِ بلهفةٍ .. لقد كان فارغاً يخلو م ن أيةٍّ كتاباتٍ باستثناءِ عبارتكِ في أوّلِ صفحةٍ منهُ : (الذكرى ناقوسٌ يدقُّ في عالمِ النسيانِ)! .. أمسكَ وليد بالدفترِ وتوجّهَ نحوَ النافذةِ وقالَ بلهجةِ محقّقٍ بارعٍ :

– " لعلّها وضعتْ ورقةً فوقَ إحدى الصفحاتِ وكتبتْ عليها لترتسمَ الكلماتُ على الصفحةِ السفليّةِ .. سنكتشفُ ذلكَ من خلالِ تعريضهِ للشمسِ ! "

– " يبدو أنّكَ تكثرُ من قراءةِ كتبِ الجاسوسيّةِ ! ماذا تعتقدُ ؟ إنّها مجرّدُ طالبةٍ ! "

أجابَ باللهجةِ نفسها :

– " لا تستهنْ يا سيّدي بعقولِ الفتياتِ الصغيراتِ !"

تابعَ تفحّصَ الأوتوغراف ثمَّ سألني بغتةً :

– " ما اسمُ خطيبها ؟ "

قلتُ مستغرباً :

– " لا أعلمُ .. لماذا تسألُ ؟ "

أجابَ بلهجةِ الواثقِ :

– " إنْ لم يكن يبدأُ بحرفِ الرّاء فهذه الفتاةُ قد أرسلتْ لكَ هديّةً ! انظرْ ماذا رسمتْ لكَ في أسفلِ الصفحةِ الأولى ! "

خطفتُ الدفترَ من بينِ يديهِ ونظرتُ .. لقد وضعتِ حرفيَ K و R على طرفَي السهمِ الذي يخترقُ رسماً أحمرَ لقلبٍ صغيرٍ .. اعترتني البهجةُ وأنا أتأمّلُ الرسمَ وأقولُ لوليد :

– " ألهذا السببِ كانَ الأوتوغراف فارغاً ؟ لقدِ اشترتهُ خصّيصاً لترسلَ لي هذا التلميحَ ! يبدو أنّها قد أدركتْ كلَّ ما يمنعني عن مبادرتها

بالبوح فأرادتْ أنْ تحلَّ الأزمةَ عل ى طريقتها !
أليس كذلك ؟ "

قالَ وليد محبِطاً :

- " مهلاً , لا تندفعْ كثيراً ! عفواً .. أنا لا أريدُ أنْ
أُحبطَكَ ولكنّكَ لن تتأكدَ من ذلك قبل أنْ
تعرفَ اسمَ خطيبها ! "

- " وكيفَ سنعرفُ الآن ؟ يجب أنْ أُسلّمَها الدفترَ
غداً و يُفتر ضُ أنْ أكونَ قد كتبتُ فيهِ شيئاً ..
فماذا لو كان اسمه يبدأُ بحرفِ الراءِ ؟ "

- " قدْ لا تعرفُ قمر شيئاً من هذه التداخلاتِ
وستصابُ بالقنوطِ إنْ لم تجدْ ما يرضيها في
كلماتكَ ! "

- " أرجوك ! لا تعقّدِ الأمورَ أكثرَ مما هي عليه !
ولنبحثْ عن طريقةٍ لمعرفةِ الاسمِ . "

- " يبدو أنَّ التجربةَ قد فشلتْ و سنبحثُ عن
شروطٍ جديدةٍ للتفاعل ! "

ثمَّ أطرقَ مليّاً وقالَ :

- " في أيّةِ حصّةٍ ستدخلُ غداً إلى صفّها ؟ "

- " في الحصّةِ الثالثةِ . "

- " أنتَ محظوظٌ إذاً ! لديكَ متّسعٌ من الوقتِ لتسألَ عن اسمه .. فاكتبْ لها رسالةً على ورقةٍ خارجيّةٍ و اكتبْ لها شيئاً اعتيادياً في دفترها , فإمّا أنْ تدسَّ لها رسالتكَ في دفترها أو لا , بحسبِ النتيجةِ ! ما رأيكَ ؟ "

- " أنتَ عبقريٌّ ! هذا أفضلُ الحلولِ .. أنتَ عبقريٌّ! "

- " هيّا , ابدأْ بالكتابةِ ! و سأهتمُّ بتحضيرِ الغداءِ ريثما تنتهي من غراميّاتكَ . "

أمسكتُ بالقلمِ و نزعتُ ورقةً من دفترِ التحضيرِ .. كانت البدايةُ عقبةً كبرى .. أكتبُ عدّةَ كلماتٍ ثمَّ أشطبها .. ثمَّ أعودُ للتفكيرِ متردّداً في الكتابةِ .. أنهى وليد تحضيرَ

الطعام وبداً يزيلُ الأغراضَ عن الطاولة حيثُ سيضعهُ , في حين لا زلتُ عاجزاً عن الكتابة ..

- " اكتبْ لها الذكرى أولاً .. سطراً أو اثنين لا أكثرَ, و وفّرْ غدّتَكَ النخاميّةَ لرسالةٍ منمّقةٍ ! "

تناولتُ الدفترَ وكتبتُ لكِ (أتمنّى لكِ حياةً سعيدةً ومستقبلاً عظيماً . الأستاذ رعـد .) .. قال وليد بصوتٍ تخيّلتُ أنّهُ صوتُ أمّي :

- " ألا تريدُ تناولَ الطعام ؟ "

لم أُجِـبْهُ فكرّرَ سؤالَهُ فقلتُ :

- " لا , لا , فيما بعد .. يبدو أنّني توصّلتُ للبدءِ برسالتي."

تناولَ وليد طعامه بنهمٍ , وكنتُ أسمعُ بينَ الحينِ والآخرِ همهماتِه و صوتَ مضغهِ وابتلاعهِ الطعامَ . وبعدما شبعَ خرجَ قائلاً إنّهُ سيمضي بـعضَ الوقتِ عند زملائنا من أهالي البلدةِ .. أنهيتُ كتابةَ رسالتي فقمتُ بنسخها منقّحةً على ورقةٍ بيضاءَ جديدةٍ بخطٍّ هادئٍ :

(مليكتي .. اسمحي لي بأنْ أُسمّيكِ مليكتي لأنّكِ أسرتِ قلبيَ منذُ النظرةِ الأولى , منذُ اللحظةِ الأولى التي دخلتِ فيها إلى صفّي .. ولأنَّ عينيكِ منحتاني تفاؤلاً بأنَّ الحياةَ لجديرةٌ أن تُعاشَ , وأنَّ أملاً جديداً انبعثَ في كياني المحطّمِ لأبدأَ من جديدٍ ..

لن أضيّعَ هذه الفرصةَ السانحةَ و سأبوحُ لكِ بما في خلدي من عو اطفَ متأجّجةٍ ومشاعرَ لا توصفُ .. وأختصرُ ذلكَ كلَّه بكلمةٍ واحدةٍ : أُحِبُّـــكِ . وأنا بذلكَ لستُ متسرّعاً لأنّنا تجاوزنا المقدّماتِ الزخرفيّةَ وأعتقدُ أنَّ الوقتَ قد حانَ لندخلَ في صلبِ الأمرِ مباشرةً ..

إنَّ مسألةَ خطبتكِ أو زواجكِ هي العائقُ الوحيدُ بيننا ! وبما أنّكِ تقرئينَ هذه الرسالةَ الآنَ فهذا يعني أنّني واثقٌ من أنّكِ تبادلينني المشاعرَ ذاتها . ولهذا أرجو أن تكتبي لي حول ذلك و أن تضعي رسالتكِ بينَ أوراق دفترِكِ لأتمكّنَ من استلامها أثناء تفقّدي للوظائفِ !

اكتبي كلَّ شيءٍ .. اطرحي حـّلاً أو حلولاً .. اكتبي , وسأكونُ شديدَ التشوّقِ للقراءةِ .... رعد .)

جئتِني في اليومِ التالي إلى الصفِّ العاشرِ .. فوجئتُ بكِ تنتظرينني خارجَ بابِ الصفِّ لدى خروجي منهُ .. ابتسامتكِ الملائكيّةُ احتضنتْ شفتيكِ وأنتِ تسألينَ :

– " هلِ انتهيتَ من كتابةِ الذكرى يا أستاذ ؟ .. يجبُ أنْ أعطيَ الأوتوغراف لمدرّسينَ آخرين!"

– " نعم , أنهيتُ ذلكَ لكنَّ الدفترَ في درجي في قاعةِ المدرّسين , وسأُعيده إليكِ في الدرسِ الثالث عندما أدخلُ إلى صفّكم .. "

تبتسمينَ وتهزّينَ رأسكِ موافقةً و تهمّين بالانصرافِ لولا أنّني استوقفتكِ لأسألكِ بلهجةٍ جاهدتُ أنْ تبدوَ طبيعيّةً, ولكنَّ صوتيَ تهدّجَ و كلماتي تكسرّتْ خوفاً من ردٍّ صاعقٍ:

– " أريدُ أنْ أسألكِ سؤالاً على سبيلِ الفضول لا أكثرَ .. ما اسمُ خطيبكِ ؟ "

وجاءني ردّكِ المفرحُ والمحبطُ معاً ! يا لتعاستي ! يزدادُ الأمرُ تعقيداً .. وكلّما خرجتُ من أزمةٍ أصابتني أُخرى.. أنهيتُ درسي وعدتُ إلى قاعة المدرّسين حيثُ سألني وليد فورَ دخولي وتوجّهي نحو خزانةِ الأدراجِ :

– " ما الأخبار ؟ هل توصّلتَ إلى شيءٍ ؟ "

– " اسمه سمير ."

– " سمير ؟ هذا شيءٌ مفرحٌ ! أستغربُ شيئاً ما لا أفهمه على وجهك ! "

– " هذا لأنّكَ لم تعرفْ ما هي شهرتُه ! وحتّى إنْ عرفتَها فلن تعلمَ أنّهُ أحدُ أصدقائي في الجامعة!"

صمتُّ قليلاً ثمَّ تابعتُ وسط دهشةِوذهولِهِ :

– " ألا يكفي هذا لتفسيرِ غموضِ وجهي ؟! "

يقطعُ حديثَنا دخولُ عددٍ من المدرّسين إلى القاعةِ .. يقول حامد مدرّسُ الرياضيّاتِ بلهجةٍ معاتبةٍ :

– " كونُكما شريكين في غرفةٍ واحدةٍ لا يعني بالضرورةِ الانزواءَ و الابتعادَ عنّا يا شباب .. "

تجاهلتُ كلامهُ وتوجّهتُ نحو أحدِ الكراسي فجلستُ عليه في حين سمعتهُ يهمسُ لوليد :

– " ما بالُهُ ؟ يبدو عليه التعبُ واضحاً ؟ "

لم أفهم همساتِ وليد مجيباً , ولكنْ من المؤكّدِ أنّه ابتدعَ لهُ إجابةً ما ..

عيونُ زملائي وزميلاتي المتوافدين إلى القاعةِ ترمقني بنظراتٍ لا أفهمها , حتّى المستخدمة التي تقدّمُ لنا الشايَ فقد قالتْ وهي تضعُ الكوبَ أمامي , وقد اعتادتْ أن تقولَ الشيءَ نفسهُ لكلِّ من تجدهُ على غيرِ طبيعتهِ :

– " تفضّلْ يا أستاذ رعد .. اشربْ و لا عليكَ فأوّلُ الدنيا سيكونُ غداً ! "

وجاءَ وليد ليجلسَ إلى جانبي من دونِ أن ينبسَ ببنتِ شفةٍ , بينما تظاهرتُ بمراجعةِ دفتر التحضير .

دخلتُ إلى صفّكِ .. وبدا لي أنّكِ قرأتِ تعابير وجهي.. وبدا لي الصفُّ بكاملهِ صامتاً على غير عادتهِ فخُيّلَ إليَّ أنَّ الجميعَ قد قرؤوا معاناتي ! يتخامدُ صوتي وأنا أطلبُ منكم فتحَ الدفاترِ والكتبِ .. أتفقّدُ الوظائفَ , وعندما أصلُ إليكِ أعطيكِ الأوتوغراف فتتناولهُ يداكِ معاً وكأنّه شيءٌ ثقيلٌ تخشيْنَ سقوطَهُ .. لا تقرئينهُ بل تدخلينهُ مباشرةً في جيبِ حقيبتِكِ ..

شهرٌ آخرُ يمرُّ ورسالتي معتكفةٌ في جيبي ! ونزاعٌ يتأجّجُ في داخلي ,كلّما نظرتُ إليكِ , بينَ رغبةٍ هوجاءَ في احتضانكِ وغرسكِ داخلَ أحشائي , ورغبةٍ عصماءَ في تجاهلكِ و زرعكِ في صفحاتِ الماضي المنسيِّ ! ما العملُ ؟ أأُخبركِ بأمرِ صديقي ؟ أيكونُ قد أخبرَكِ عنّي ؟ هل حدّثْتِهِ في إحدى رسائلكِ عنّي ؟ ألا ترَ اهُ قدْ علمَ صدفةً بأنّني أدرّسُ في ثانويّتكم فسارعَ ليقولَ : (كانَ هذا صديقي !) ؟ أتخبّطُ بينَ ملايينِ الأفكار حتّى أجدَ نفسي في درسٍ ما أطرحُ مثالاً لتوضيحِ عملِ (لا

الناهيةِ) فأكتبُ على السبّورةِ شطراً وردَ في قصيدةٍ للقبّاني حفظتها منذُ مراهقتي , وخطر لي فجأةً : (لا تحسبي أنَّ شيئاً تغيّر).. ألفظُ ثمَّ أدوّنُ ثمَّ أقرأُ ثمَّ أعيدُ القراءةَ ثمَّ ألتفتُ نحو الطلبةِ و أسترسلُ في إلقاءِ القصيدةِ كاملةً..كانَ نظري في معظمِ الأحيان يتوجّهُ إليكِ فأرى انطباعَكِ وتأثّرَكِ العميقَ و أسافرُ في معاني نظراتكِ وأفسّرُها كما يحلو لي .. أتناسى وجوهَ الطلبةِ من حولنا و إخالنُا وحيدين في مكانٍ منسيٍّ لا تفصلنا حواجزُ و لا مقاعدُ و لا وجوهٌ .. أراكِ تبتسمينَ و تصفّقينَ فأصحو من شرودي لأسمعَ و أرى كلَّ من في الصفِّ مصفقاً .. ويقفُ أسامةُ ليقولَ :

– " أعرفها جيّداً ! أليستْ من قصائدِ نزار ؟ "

أقولُ مفاخراً :

– " بلى , بلى . "

يقولُ بشّار مبتهجاً :

- " قرأتُها وحفظتُها ولكنّني تأثّرتُ الآنَ كأنّني أسمعها للمرّةِ الأولى .. صباحكَ سكّر يا أُستاذ ! "

هذا ما عبّأني لأُغيّرَ موقفي .. نعمٌ يا حبيبتي , لا تحسبي أنَّ شيئاً تغيّرَ .. ولن يغيّرَ في الأمرِ شيئاً كونُ خطيبكِ صديقي .. ولعلّهُ لم يكنْ صديقاً ! دعيني أُسمّه زميلاً فقد يكونُ هذا أخفَّ وقعاً !

عندَ نهايةِ ذلكَ الدرسِ يبدأُ الطلاّبُ بمغادرةِ الصفِّ خروجاً للاستراحةِ .. تتلكّئين في الانصرافِ .. أُخرجُ الرسالةَ من جيبي ثمَّ أفتحها وأضعها أمامي على الطاولةِ وأضيفُ إليها عباراتٍ حشرتها في الفراغِ السفليِّ:(كتبتُ لكِ هذه الرسالةَ يومَ أعطيتني الأوتوغراف , ولا زالتْ في جيبي منذُ ذلكَ الوقتِ , وامتنعتُ عن تسليمكِ إيّاها بعد أن عرفتُ أنَّ خطيبكِ هو أحد زملائي في الجامعةِ ..) .. يخرجُ جميعُ الطلاّبِ وكنتِ الأخيرةَ فأناديكِ .. تتوقّفينَ فأتابعُ الكتابةَ : (لكنّني قرّرتُ الآنَ أنَّ ذلكَ لا يغيّرُ في الأمرِ شيئاً ..) ثمَّ أطويها وأقولُ :

– " هذه لكِ ..اقرئيها عندما تكونينَ وحيدةً ! "

تتناولينها وتقرأُها تنهيدتكِ غيباً وتكملينَ طيّها ثمَّ

تدسّينه ا في جيبِ سترتكِ العلويِّ وتغادرينَ لتنضمَّ

إليكِ سحرُ المنتظرةُ في الممرِّ ..

يقولُ وليد أثناء تناولِ الغداءِ في الغرفةِ :

– " إن جاءكَ ردُّها غداً ستزيلُ من رأسكَ كلَّ

الأوهامِ , وإنْ رأتْ فيكَ أملاً عليكَ أنْ تواكبَ

حماسَها.. امنحها كلَّ ما لديكَ من ثقةٍ لأنَّ

الفتياتِ في مثلِ سنّها يخشينَ من التلاعبِ ! فإذا

طلبتْ منكَ أيَّ شيءٍ لكسبِ الثقةِ فافعلْهُ ! "

– " هل تعتقدُ أنّها ستكتبُ رسالةً أم ستكتفي

بشيءٍ من التلميحِ ؟ "

– " هذا ما لا أستطيعُ التكّهنَ بهِ ! "

– " أتعلمُ شيئاً ؟ لستُ واثقاً تماماً ممّا فعلتُهُ اليومَ !

لا أعلمُ بالتحديدِ ما أشعرُ بهِ ! قد يكونُ ندماً ,

خجلاً, لا أعرفُ بدقّةٍ ! فالأمور تختلطُ في عقلي و ... "

- " هذا شعورٌ طبيعيٌّ اسمهُ القلقُ , فلا تعتقدْ أنّهُ ندمٌ أو خجلٌ .. "

صمتَ قليلاً و هو ينقّلُ نظراتِهِ بينَ وجهي و الأشياءِ التي أمامنا على الم ائدةِ , وأصابعهُ تدوّرُ كوبَ الشاي ببطءٍ على الصينيّةِ ثمَّ تابعَ بصوتٍ خافتٍ ولطيفٍ مثبّتاً نظرهُ باتّجاهِ الكوبِ :

- " لقدْ كسرتَ اليومَ حاجزَ الخجلِ المنيعَ بينَ المدرّسِ وطلاّبهِ , وأعدْتَ نفسكَ إلى مثلِ أعمارهم ! هذا يعني عشر سنينٍ إلى الوراءِ ! كلُّه ذا ولا تريدُ أنْ تشعرَ بشيءٍ غامضٍ ؟ فليكنْ ما يكونُ ..لن تستطيعَ في هذهِ اللحظةِ أن تفعلَ شيئاً ! لقدْ مزجتَ المحاليلَ الآنَ وبدأَ التفاعلُ ! ولن يكونَ بالإمكانِ إيقافهُ .. فانتظرِ الغدَ بما يحملُ من نتائجَ ! "

- " لكنَّ يومَ الغدِ سيكونُ آخرَ أيّامِ الدوامِ في الفصلِ الأولِ .. وإن لم أرَها غداً فسأنتظرُ خمسةَ أيّامٍ أُخرَ لأراها في الامتحان ؟ "

- " تفاءلْ بالخير تجدْهُ ! انتظرْ و سترى . "

وجاءَ الغدُ ! وكانتْ رسالتُكِ المنتظرةُ .. ورقةٌ تمَّ طيُّها وتكويرها لتصبحَ بحجمِ حبّةِ الكرزِ , أو هكذا خُيّلَ إليَّ لأنَّ كتبتها على ورقةٍ حمراءَ ! اعتراني شعورٌ بالفرحِ الغامرِ عندما رأيتكِ تخرجينها خلسةً من جيبكِ وتضعينها أمامكِ إلى جانبِ كتابكِ ويدُكِ تغطّيها كخيمةٍ .. قرأتُها قبلَ أنْ ألمسَها ! خطفتُها بيدٍ خبيرةٍ من دونِ النظرِ إلى وجه جارتكِ سحر و دسستُها داخلَ جيبي ثمَّ تابعتُ تفقّدَ الوظائفِ .. تلهّفتُ لقراءتها .. حاولتُ ذلكَ في الممرِّ لدى خروجي من صفّكِ لكنّني تركتُ ذلكَ إلى مكانٍ آخرَ خشيةً من الموجّهةِ حنان التي كانتْ تراقبُ في نهايتهِ كحرّاسِ المصارفِ .. توجّهتُ إلى قاعةِ المدرّسين, كانتْ خاليةً أثناءَ وقتِ ال تبادلِ .. فتحتُ

درجيَ ووضعتُ رسالتكِ داخلَه وأَبقيتُهُ مفتوحاً و أنا أقرأُ :

(أستاذي رعد .. لا أُخفي عليكَ تعلّقي بكَ منذ اليومِ الأوّلِ , وقد شعرتُ و أحسستُ و عرفتُ وأدركتُ أنّكَ تُكنُّ لي عواطفَ نبيلةً تردّدتُ كثيراً في تفسيرها أولَ الأمرِ بشكلٍ دقيقٍ .. وكانَ لا بدَّ لي من طلبِ المساعدةِ من سحر .. وهي تعلمُ بكلِّ هذا , ولا تخشَ منها شيئاً لأنّها صديقةٌ , وسرّيَ مأمونٌ لديها , وهي صاحبةُ فكرةِ الأوتوغراف .. لكنّكَ خيّبتَ أملي عندما كتبتَ لي عبارةً مستهلَكَةً فشعرتُ بتعاسةٍ كبيرةٍ وكدتُ أفقد عقلي يومها .. ونعتُّكَ تارةً بالخائفِ وتارةً بالمثاليِّ ! لكنّكَ اليومَ بدّدتَ كلَّ أوهامي بكلماتكَ الرائعةِ .. لقد قرأتُ رسالتكَ عشراتِ المرّاتِ وأكتبُ لكَ الآنَ وهي أمامي أستمدُّ منها إلهامي ..

يا سيّدي .. سأكذبُ لو قلتُ إنّني لا أُحبُّكَ .. ويجب أنْ أُخبركَ الآن بأنّي أُجبرتُ على خطبتي من سمير ..

هو ابن خالتي ولن أُحمّلَ نفسي عناءَ سردِ ما تبقّى من الحكايةِ ! لكنّني أجدُ فيكَ خلاصاً من عذابي وأملاً في الحياةِ إنْ كُتبَ ليَ أنْ أَحيا ! أنتَ تطلبُ منّي أنْ أضعَ حلولاً , وجوابي هو أنّكَ أنتَ الحلُّ الوحيدُ لمأساتي والذي يجبُ أنْ يجدَ لنا مخرجاً .. أنتَ من سيداوي هذا الجرحَ العميقَ النازفَ الذي سبّبْتْهُ ليَ قسوةُ أهلي ومجتمعي .. فيكَ الخلاصُ فأسعفني .. أحبُّــكَ . قمر.).

كم كانتْ سعادتي عظيمةً أنّني وجدتُ نصفي الثاني التائهَ في مجاهلِ السنين .. وجدتُ شر يكةَ العمر التي أفنيتُ شبابي بحثاً عنها .. وجدتُ فتاةً تقولُ لي ما سمعتُه فقط في أحلامِ النومِ واليقظةِ .. قذفتُ بكلِّ همومي جانباً .. تناسيتُ كلَّ شيءٍ .. أنتِ همّيَ الوحيدُ الآن .. لكنّني لن أراكِ إلاّ في الامتحانِ بعدَ خمسةِ أيّامٍ ..

ما أطولها من أيّامٍ .. أحسستُها دهوراً وتاريخاً مديداً .. قضيتُها في قريتي الصغيرةِ ساهراً كلَّ يومٍ أرقبُ طلوعَ

الشمسِ معتقداً أنّه اليومُ الخامسُ .. وكانَ طيفُكِ يصاحبُ شروقَها .. أنّبتني أمّي كثيراً كلَّ صباحٍ :

– " ألا زلتَ مستيقظاً ؟! هذا حرامٌ يا ولدي ! لقد انقلبَ نهارُ كَ ليلاً وليلُكَ نهاراً ! هل هناكَ ما يشغلُ بالكَ ؟ أتكونُ قد وجدتَ عروساً ؟

أضحكُ و لا أُجيبُ .. أنتظرُ مغادر تها لأعودَ وأضعَ رسالتَكِ أمامي أستمدُّ منها إلهامي لأكتبَ إليكِ رسالتي الثانيةَ :

(أميرتي الناعمةَ .. مليكةَ الحبِّ الأبديِّ .. طارَ النومُ من جفوني , وانتظرتُ شروقَ الشمسِ لأوجّهَ صلواتي إلى ربّي ليحفظكِ ويُبقيَكِ مصدرَ إلهامي ومنبعَ شِعري.. أشتاقُ إليكِ .. أشتاقُ و أشتاقُ .. وصوتُ فيروزَ التي تغنّي لكِ { قمرة يا قمرة } يؤنسُ صباحي ويمنحني القدرةَ على البدءِ بأبياتي التي أهديها لعينيكِ :

* بدأتُ أكتبُ من (قمرة)إلى(قمرة)

والوجـدُ يخـطفُ من أفكاريَ الفكَرَ
فالقلبُ ينبضُ و الأشواقُ عاصفةٌ
والعينُ عافتْ نوماً هانئاً وكَرى
* الليلُ أصبحَ والإصباحُ يحملني
إلى عينيكِ ألثما و أستعرُ
بالحبِّ نحيا مدى الأزمانِ نحملُهُ
زاداً وماءً و منهُ الشِّعرَ نبتكرُ
* قمرٌ و ليليَ و التّحنانُ يجمعنا
روحاً بروحٍ و أسفاراً بأسفارِ
إليكِ أكتبُ ما تملِيهِ عيناكِ
شِعراً يسعّرُ نارَ الوجدِ بالنارِ
* تُهدى القصائدُ و الأشعارُ والكتبُ
فدًى لعينكِ يا عينيَّ والبصرَ
فأحملُ شِعري و أتلوهُ لكِ خجِلاً
ألاّ يحاكيَ فيكِ شَعرَكِ العطِرَ

سيظلُّ شَعرُكِ الذهبيُّ و عيناكِ الخضراوان وحيَ عطائي وشيطان شعري .. أحبُّكِ يا قمري .. أحبُّكِ يا مليكةَ الحنان .. أحبُّكِ و أصبحتُ أسيرَ عينيكِ فلا تخاطبيني بكلمةِ (سيّدي) في حين أنّكِ أنتِ السيّدةُ و أنا الأسيرُ! أحبُّكِ وسأكونُ لكِ و تكونين لي .. تعالي نقهرُ الصعابَ الماثلةَ أمامَ حبّنا الطاهرِ .. لقد انتهى و ولّى منذ زمنٍ غابرٍ عهدُ إجبارِ الفتاةِ على الزواجِ بمّنْ لا تحبُّ ! وليكنْ إيمانُكِ بحبّنا عظيماً لدرجةِ أنّنا به سندحرُ كلَّ هذه المآسي و العثراتِ .. و في خِضمِّ كلِّ هذا و ذاكَ لا أُريدُ لشيءٍ أنْ يمنعَكِ من متابعةِ تعليمكِ و الحصولِ على أعلى مراتبِ العلمِ كي أُفاخرَ و أباهيَ بكِ كلَّ نساءِ العالمِ .. أحبُّكِ و أنتظرُ ردّكِ .... رعد .) .

في اليومِ الأوّلِ من الامتحانِ كُلّفتُ بالمراقبةِ في القاعةِ الثانية فاستلمتُ مغلّفاتِ الأسئلةِ و توجّهتُ مباشرةً إلى غرفةِ الموجّهة حنان و بحثتُ في جداولِ الأسماءِ لأعرفَ في أيّةِ قاعةٍ سُجّلْتِ فوجدتُها الثامنةَ ,

ولحسنِ الحظِّ كانتْ قبالةَ القاعةِ الثانيةِ حيثُ وقفتُ أنتظرُ قرعَ الجرسِ إيذاناً بدخولِ الطلاّبِ .. ازدحامٌ وفوضى .. كلٌّ يبحثُ عن قاعته .. ويشرقُ وجهُكِ من بينِ ملايين الوجوهِ .. تبتسمين لدى مشاهدتكِ لي فأستقبلكِ بابتسامةٍ و أدخلُ يدي في جيبِ معطفي وأتلمّسُ الرسالةَ التي تعلّمتُ منكِ طريقةَ تكويرِها .. وعندما تصلِ ينَ أُمسكُ بها و أنتظرُ اللحظةَ المناسبةَ لتقديمها إليكِ .. صوتُكِ الملائكيُّ يهمسُ :

– " صباحُ الخيرِ يا أستاذ ! "

أهمسُ بصوتٍ مناغمٍ :

– " صباحُكِ سكّرٌ ! "

ثمَّ أمدُّ يدي مصافحاً فتتسلّمين رسالتي .. و يقتربُ عددٌ من الطلاّبِ فأُسارعُ إلى سؤالكِ بصوتٍ مسموعٍ :

– " هل درستِ جيداً ؟ "

– " نعم , أستاذ رعد . "

– " بالتوفيقِ إنْ شاءَ اللهُ ! "

تدخلينَ قاعتَكِ , و أُراقبكِ حتّى تغيبي عن مجالِ الرؤيةِ.. الراحةُ و السكينةُ تعترياننني , فكلُّ شيءٍ يسيرُ بطريقةٍ سليمةٍ حتّى اللحظةِ .. لكنَّ المستقبلَ الغامضَ يقلقني فجأةً .. ماذا لو لم ننجحْ في فسخِ عقد زواجك؟ ! ماذا لو فُضحَ أمرنا داخلَ المدرسةِ ؟ إنَّ الموجّهةَ الشرسةَ ستفتعلُ من الأمرِ قضيّةً كبرى !

أجمعُ أوراقَ طلاّبِ قاعتي عندَ نهايةِ الامتحانِ و أمرُّ من أمامِ قاعتك .. كانت خاليةً ! أعبرُ الممرَّ وأسرعُ إلى غرفة الموجّهةِ لتسليمها الأوراقَ فتؤخّرُ ني باستفساراتها السخيفةِ :

- " كم طالباً لديكَ في القاعةِ , أستاذ رعد ؟ "
- " ذلكَ مدوّنٌ في اللائحةِ التي أمامكِ ! "
- " في أيّةِ قاعةٍ كنتَ ؟ "
- " في الثانيةِ . "
- " ولماذا أنتَ على عجلةٍ من أمركَ ؟ "

– " تسلّمي هذه الأوراقَ إنْ تسمحي , و سأكونُ مسؤولاً عن النقصِ إنْ وُجدَ . "

قلتُ ذلكَ ورميتُ الأوراقَ على طاولتها وغادرتُ غرفتها فصادفتُ وليد يدخلها حاملاً أوراقَه, وكدتُ أصدمهُ ولم أُكلّمْهُ .. وصلتُ إلى الباحةِ أبحثُ عنكِ لكنّني لم أجدْكِ فوقفتُ عندَ مدخلِ المدرسةِ أنتظرُ وصولَ وليد...

يتوقّفُ باصُ القريةِ لتصعدَ إليهِ سارة , جارتُنا المدرّسةُ , وأشاهدُ أمَّ عبد الله قبالتي تُزيحُ أغراضَها وتُسندُ قبضةَ المكنسةِ إلى جانبِ ركبتِها فتُبقي يدَها فوقها ثمَّ تقولُ بصوتها الهَرِمِ قاطعةً شريطَ ذكرياتي :

– " تعالي يا حبيبتي , اجلسي هنا إلى جانبي . "

تجلسُ سارة وتسلّمُ عليها ثمَّ تقولُ بلهجةٍ مبتهجةٍ :

– " مرحباً يا أستاذ رعد ! "

– " أهلاً ,آنسة سارة .. ماذا تفعلين هنا ؟ "

– " كما تعلمُ , كانَ اليومُ آخرَ أيّامِ الامتحانِ , وبعد أن انتهينا من المراقبة دعتْ نا إحدى زميلاتنا لتناولِ الغداءِ في هذه القرية .. "

عينا سارة خضراوان مثل عينيكِ , لكنّها ليستْ شقراءَ .. يبدو أنّها قامتْ حديثاً بقصِّ شعرها وتحويلِه إلى أشقرَ ! بشرتُها حنطيّةٌ و صوتُها ناعمٌ .. وربّما بسببِ كلِّ هذا أو بعضهِ أرى فيها صورتَكِ و أنظرُ إليها فأجدُ نـي أتابعُ مضغَ ذكرياتي ..

يقولُ وليد معاتباً بلهجةٍ ساخرةٍ :

– " كنتَ قاسياً على حنان ! ما الذي حدثَ ؟ "

– " ألا تلاحظُ أنّها لا تمتُّ إلى الحنانِ بصلةٍ إلا من خلالِ اسمها فقط ؟ "

– " اعذرني يا صديقي .. إنّني أنقلُ لكَ وجهةَ نظرِها .. هي التي قالتْ إنّكَ كنتَ قاسياً , فماذا فعلتَ ؟ "

ومن دونِ أنْ ينتظرَ منّي جواباً تابعَ :

– " ليس ذلكَ مهمّاً .. أخبرني الآنَ عن قمر . "

– " أعطيتها الرسالةَ وكنتُ أريدُ أنْ أراها بعدَ الامتحان لكنّني لم أفلحْ بسببِ حنانكَ تلكَ ! "

يضحكُ وليد ثمَّ يقطعُ ضحكتَهُ قائلاً :

– " أتعلمُ ؟ لو أنّكَ تريحُ بالكَ و تتوجّهُ برسائلكَ هذه إلى حنان لم ا احتاجَ الأمرُ إلى كلِّ هذا العناءِ , وكانتْ س تحدّدُ موعداً للزفافِ منذ قراءتها لأوّلِ جملةٍ ! "

– " حنان ؟ "

– " نعم , حنان .. ألا تلاحظُ ميلَها نحوكَ م ن بيننا جميعاً ؟ "

– " أتسخرُ يا هذا ؟ "

– " أنتَ لا ترى إلاّ قمرَك ولا تفكّرُ بسواها .. أتحبُّها إلى هذا الحدِّ ؟

– " ليسَ للحبِّ حدودٌ ! "

- " أتعلمُ لو أنَّ أمرَكَ فُضحَ داخلَ المدرسةِ لكنتَ.."

قاطعته :

- " كنتُ أفكّرُ قبلَ قليلٍ بالأمرِ نفسهِ , و أولُ شخصٍ حسبتهُ سيقاضيني هو حنان . "
- " بعدَ ما فعلتَاليومَ أعتقدُ أنّها لو اكتشفتْ شيئاً ستُحمّلكَ مسؤوليّةَ كلِّ الأزماتِ الدوليّةِ بما فيها من كوارثَ و مصائبَ , وحتّى أزمةِ السكرِ والسمنِ , وبشكلٍ خاصٍّ ستكونُ مسؤولاً عن أزمةِ مستحضراتِ التجميل ! "

ضحكنا ثمَّ تابعَ :

- " لماذا لا يعيّنونَ موجّهين ذكوراً ؟ ألأنَّ عددَ الإناثِ أكبرُ ؟ أينَ ذكوركم ؟ "
- " تسألُ وتجيبُ في آنٍ م عاً .. على كلِّ حالٍ , اعلمْ أنَّ معظمَ ذكورنا لا يهتمّون لمتابعةِ الدراسةِ الثانويّة فيتحوّلون إلى كسبِ العيشِ

ومساعدةِ ذويهم أو البحثِ عن فرصٍ للعملِ في الخارج! "

- " وفي النهايةِ أنتَ بارعٌ في تجاهلِ سؤالي والتهرّبِ من الإجابة .. هيّا , حدّثني .. "

- " أتعلمُ يا وليد ؟ لقد حوّلتني قمر إلى شاعرٍ وإلى.."

- " واللهِ لا أرى فيكَ إلاّ شابّاً قليل الطعامِ ,كثيرَ التدخين و السهرِ , متجاهلاً الآخرينَ , دائمَ الشرودِ .. سأقترحُ اليومَ عليكَ شيئاً : بما أنّكَ سلّمتها اليومَ رسالةً فلن تستطيعَ كتابةَ أُخرى إلاّ بعدَ تسلّمكَ الرّدَّ .. وهذا يعني توقفاً مؤقّتاً عن التفكيرِ لأربعٍ و عشرين ساعةً , و ستكونُ سهرةُ اليومِ مخصّصةً للعبِ (الكوبّة) ! ما رأيك ؟ "

- " قبلَ السهرةِ , دعْنا نتناولِ الغداءَ , و أعدكَ أنّني سآكلُ حتّى التّخمة ! "

في اليومِ التالي يتكرّرُ المشهدُ السابقُ : مصافحةٌ تتضمّنُ استلاماً لرسالتكِ .. أصافحُ طلاّباً آخرينَ تمويهاً .. ثمَّ صوتُ حنان المزعجُ يحثّكِ على الإسراع في اللجوءِ إلى قاعتكِ ..

أراقبُ في القاعةِ الثالثةِ و أفكّرُ : (إذا استمرَّ توزيعُ المراقبينَ هكذا فسينقضي الامتحانُ دون أنْ أتمكّنَ من المراقبةِ في قاعتكِ !) .. أتلمّسُ رسالتكِ في جيبي.. لا أطيقُ صبراً .. أتركُ قاعتي و أذهبُ إلى قاعةِ المدرّسين الخاليةِ و أقرأُ كلماتكِ بشغفٍ :

(أميري , فارسي , شاعري , عمري , إليكَ سيّدي أكتبُ .. إليكَ أسعى و حبَّكَ أطل بُ .. قلبكَ بيتي وعيناكَ سريري .. صدركَ وسادتي و يداكَ دثاري .. صوتكَ قيثارةُ ألحاني ..اسمكَ أغلى أحلامي .. وكلامكَ , آهٍ ما أحلاهُ , يُنسيني الكون بما يحوي , يُنسيني أهلي وزماني .. أنتَ اسمي , أنتَ شمسي وأرضي , أنتَ أهلي , أنتَ حلمي , أنتَ الدنيا و ما

فيها .. أناجيكَ ليلَ نهارَ .. أقرأُ شعركَ وكلماتكَ .. أفكّرُ فيكَ كلّما ضاقتْ بيَ الدنيا فأجدُها رحبةً فسيحةً .. استمدّيتُ اليومَ شجاعةً من وحي رسالتكَ فلم أخرجْ لمقابلةِ خالتي وبناتها اللائي جئنَ لزيارتنا , وهذا ما أغضبَ أمّي .. لكنّني كنتُ مرتاحةً و أنا أقولُ لها بكلِّ ثقةٍ و من دونِ خوفٍ : (قولي لهنَّ إنّني أدرسُ و لا أستطيعُ تضييعَ وقتي !) و شعرتُ أنّكَ موجودٌ في غرفتي و أنَّ ذلكَ يرضيكَ .. وأريدُكَ أن تعرفَ أمراً آخرَ و هو أنَّ كلماتكَ دفعتني إلى المواظبة على الدراسةِ وتحضيرِ مادةِ الغدِ بشكلٍ رائعٍ و أعدكَ أن أستمرَّ هكذا فيما تبقّى من مواد وخاصّةً اللغةَ العربيّةَ .. سأكونُ فتاتكَ التي تباهي بها كلَّ نساءِ الأرضِ ! وفي المقابلِ أريدُكَ أنْ تهتمَّ بنفسكَ قليلاً .. لاحظتُ ذلكَ الشحوبَ على وجهكَ ولاحظتْه زميلاتي أيضاً .. وبالمناسبة , لقد تذكّرتُ شيئاً : لقد نعتُّكَ بالمتعجرف أمامهنَّ لكي أبعدَ الأنظارَ عن حبّنا , وكنتُ بذلكَ الوحيدةَ بينهنَّ التي

تراكَ على هذه الصورةِ .. شعبيّتكَ واسعةٌ لديهنَّ ,
ومنهنَّ من يلقّبنكَ بالدون جوان , وهذا ما أشعرني
بالغيرةِ .. أحبُّكَ .. و سأظلُّ أحبُّكَ حتّى ينتهيَ الزّمانُ..
تصريحُ على حبٍّ ... قمر .) .
ما أروعكِ يا قمري ! بدأنا الآنَ رحلتنا العمليّةَ .. نصبحُ
أكثرَ تقارباً.. وينبغي أنْ تحملَ رسالتي القادمةُ مزيداً
من التشجيعِ .. وكانتْ مساءً في غرفتي بعدَ أنْ نامَ
وليد:
(مليكةَ الحبِّ الأبديِّ .. أنشودةَ فرحي .. يا لمسةَ
المسيحِ التي انتشلتني من الظلامِ .. يا أيّتها اليدُ
المباركةُ التي امتدّتْ لمساعدتي حينَ اعتكفتْ كلُّ
الأيدي خلفَ الظهورِ.. يا أيُّها النورُ الربّانيُّ و الصوتُ
الملائكيُّ .. يا أيُّها الصدرُ الحنونُ الذي آواني ..
أحبُّكِ حتّى ينتهيَ الزمانُ , و سأبقى لكِ حينَ يتخلّى
عنكِ كلُّ الناسِ .. أحبُّكِ بل أعبدُكِ كيفما كنتِ , نسمةً
أو عاصفةً , غاضبةً أو هادئةً .. أعشقكِ و أريدكِ متمرّدةً

أو خانعةً , قدّيسةً أو كافرةً .. و أحتاجُ إليكِ حاجةَ الناسِ للشمسِ و حاجةَ الطيرِ للأجنحةِ ..

مليكتي العذراء : انزعي عنكِ همومَ الآخرين لأنّنا سنكتفي بهمومنا إنْ وُجدتْ .. و لا تكوني بريئةً دوماً لأنَّ الدنيا مليئةٌ بالذئابِ .. كوني على ثقةٍ مطلقةٍ أنّني لكِ وأنَّ حبَّنا يستمدُّ قوّتهُ من قدرتنا معاً على مواجهةِ الصعابِ الكبيرةِ و الصغيرةِ على السواء .. فإنْ لم ندحرْها دَحرَناْ !

مليكتي الحنون : تستطيعينَ الانسحابَ من كلِّ ما أُجبرتِ على القبولِ به , ولكنْ برويّةٍ و هدوءٍ و بلا إغضابِ أمّكِ أو أبيكِ أو أيٍّ من ذويكِ , بل يتوجّبُ عليكِ كسبُ ودِّ أمّكِ تحديداً لتكونَ إلى جانبكِ في المستقبلِ .

قمري الغالية : كلماتُكِ كانتْ شعراً انسابَ برقّةٍ إلى خواطري فأيقظَها لأكتبَ :

"ما يكونْ ؟

إن أنا أطلقتُ للحبِّ العِنانْ
و ارتميتُ في بساتينِ الحنانْ
مستجيباً للنّداءْ ؟
ما يكونْ ؟
لو تجيءُ حبيبتي عندَ الشّروقْ
بينَ أحضانِ الضّياءْ
فوقَ أجنحةِ الصّباحْ
بينَ ألحانِ النسائمِ
مثلَ أغنيةِ السماءْ ؟
ما يكونْ ؟
إنْ هوى العشّاقِ غنّى :
(لو يصيرُ الحبُّ قُبلهْ ..
والتّحايا تُستحالُ إلى عناقْ)
لو حريقُ الشوق يغدو ما نشاءْ ؟
فاعذريني صغيرتي .. لا , لن ألينْ
قد حباني الرّبُّ بنعمةِ البوحِ الأمينْ

ربّما أصبر .. ولكنْ
لن يظلَّ الشوقُ في عينيَّ ناراً تستكينْ
فتعاليْ .. و احضنيني
ودعيني ألثمِ الثغرَ .. احتويني
وامنحيني
شمّةً من نسجِ عنبرْ
ضمّةً , ما عدتُ أصبرْ
لمسةً , اللهُ أكبرْ
نظرةً , لا أبغي أكثرْ .. "

أحبُّكِ ..إلى اللقاء ..13/كانون الثاني1987, رعد .) .

وجاءني ردّكِ في اليومِ الرابعِ للامتحان ..وكانتْ رسالتكِ هذه المرّة على ورقةٍ بيضاءَ :

(حبيبَ عمري .. فارسي الأمير .. أكتبُ إليكَ بعد أن نامت أختايَ نغم و مروة , وسأحاولُ استغلالَ الوقت ما أمكنَ لأخبركَ أشياءَ هامّةً حدثتِ اليومَ : عدتُ من الامتحانِ لأجدَ والدي بانتظاري عندَ بوّابةِ البيتِ ,

وبداً بطرحِ سيلٍ من الأسئلةِ الغامضةِ ! و اكتشفتُ بسرعةٍ أنَّ أمّي أخبرتهُ ما فعلتُ البارحةَ مع خالتي .. و وصلَ الأمرُ إلى حدِّ التهديدِ بمنعي من الذهابِ إلى المدرسةِ إنْ أنا فكرتُ بفسخِ خطبتي .. كانَ يؤنّبني و يعنّفني في حينِ كانتْ أمّي واقفةً صامتةً متفرّجةً على غير عادتها ! وشعرتُ أنّهما على علمٍ بقصّتنا .. أو هكذا خُيّلَ إليَّ .. وفي المساءِ , حضرَ شقيقا سمير إلى بيتِنا وطالَ مكوثـُهما مع أبي و أمّي في جلسةٍ سرّي ةٍ , وكانوا يتهامسونَ .. أعتقدُ أنّني أصبحتُ تحتَ المراقبةِ منذُ الآنَ !

أنجدني يا حبيبي ! أرشدني إلى ما أفعلُ , أرجوكَ ! فأنا لم أشعرْ بمثلِ هذا الخوفِ من قبلُ .. لم أحسبْ لهذا حساباً ! أتكونُ هذه نهايتنا ؟ فإنْ كانوا لا يزالون بلا علمٍ حتّى الآنَ فلا نعلمُ ما سيعلمونَ غداً .. لا أريدُ التفكيرَ في فقدانكَ أو الحرمانِ منكَ لأنَّ هذا يعني نهايتي الحتميّةَ, سأقتلُ نفسي عندها .. أحبّكَ و أريدُ

أنْ تكونَ لي وأكونَ لكَ .. أريدكَ أنْ تنتشلني من هذا الظلامِ و تحملني عندَ الشروقِ فوقَ أجنحةِ الصباحِ بينَ أحضانِ الضياءِ .. قمر.).

أحزنتني رسالتكِ و أربكتني معاً .. شلّتْ تفكيري وصيّرتني عاجزاً عنِ التصرّفِ ! فأنا مثلكِ ,لم أحسبْ حساباً لهذه المواجهةِ .. لقدِ انجرفتُ في تيّاركِ و لم أكنْ إلاّ متفائلاً بأنْ يسيرَ كلُّ شيءٍ كما نحبُّ .. و ينبغي أنْ أحافظَ الآنَ على روحِ هذا التفاؤلِ .. أنتِ بحاجةٍ الآنَ إلى حقنةٍ من التشجيعِ ! كيفَ السبيلُ إلى ذلكَ ؟ أستشيرُ صاحبي الكيميائيَّ فيقولُ واثقاً :

- " طبعاً عندي حلٌّ .. سنغيّرُ شروطَ التفاعلِ . "

- " ماذا تقترحُ ؟ أنا بحاجةٍ إلى بعضِ معادلاتِ كَ حقّاً. "

- " لقد راقبتُ اليومَ في القا عةِ السابعةِ , وأعتقدُ أنّني سأكونُ غداً في قاعتها , و سأعطيها رسالتكَ بنفسيَ لأنّهُ من المستحسنِ ألاّ تستوقفَ ها غداً ,

فعليكَ أن تشعرَها بأنّكَ تحتاطُ لاحتمالِ وجودِ من يراقبها و ينقلُ الأخبارَ إلى أهلها ! فإنْ كتبتْ لكَ بعدَ الغدِ , وهو آخرُ أيّامِ الا متحان , فلنْ تراها إلاّ بعدَ مضيِّ العطلةِ الانتصافيّةِ . هل وضعتَ ذلكَ في الاعتبارِ ؟ "

- " فإذاً , يجبُ أنْ أطلبَ لقاءها أثناءَ العطلةِ .. قدْ تتدبّرُ حجّةً ما للذهابِ إلى المدينةِ فأراها هناكَ , ما رأيكَ ؟"

- " ليس هناكَ من حلٍّ آخرَ .. هيّا اكتبْ ! "

أكتبُ إليكِ أقصرَ رسائلي :

(حبيبتي .. سنناقشُ كثيراً من الأمورِ لو استطعنا أنْ نلتقيَ في المدينةِ أثناءَ العطلةِ , فالرسائلُ لم تعدْ تجدي نفعاً ..اكتبي ليَ حولَ هذا الأمرِ..أُحبُّكِ..رعد.).

في صباحِ اليومِ التالي تأخّرنا في النهوض لأنّنا نسينا ضبطَ المنبّهِ , ووصلنا إلى المدرسةِ في الثامنةِ و الربعِ .. استقبلتنا ذاتُ الوجهِ البغيضِ بكلماتِهاالساخرةِ :

– " كانتْ سهرتكم طويلةً البارحةَ ؟! "

لم يُجبْ أيٌّ منا فاستدركتْ لتقولَ بصوتٍ جاهدتْ أنْ يبدوَ ألطفَ :

– " الأستاذُ وليد في القاعةِ الثامنةِ , و الأستاذُ رعد في السادسةِ . "

لم أرَكِ يومها لكنَّ وليد أخبرني بعدَ الامتحانِ بأنّه أعطاكِ رسالتي أثناءَ خروجكِ من القاعةِ , و تسلّمَ منكِ رسالةً ..

– " رسالة ؟ أينَ هي ؟ أعطنيها ! "

– " الآنَ , في الشارع ؟ .. إنّها حمراء ! "

– " لا عليكَ .. الشارعُ خالٍ . "

أتناولُها من يدهِ وأفتحها بحذرٍ وأنا أقولُ :

– " أخشى أنَّ مكروها قدْ حصلَ لأنّها كتبتْ قبلَ أنْ تتسلّمَ رسالتي ! "

أتوقّفُ لأقرأَ بينما راحَ وليد يمارسُ دورَ الحارسِ الشخصيِّ بحركاتٍ مضحكةٍ لمْ أُعرْها اهتماماً :

(فارسي الأميرَ .. لقدْ قامتْ أمّي بزيارةٍ لأهلِ سحر وطلبتْ مقابلتها منفردةً و استطاعتْ استنطاقَها فعلمتْ كلَّ شيءٍ .. وما كانَ منها إلاّ أنْ فتّشتْ غرفتي أثناءَ دوامي فحصلتْ على الرسائلِ و قرأتْها جميعاً .. ولمّا عدتُ هدّدتني بإعلامِ أبي بالأمرِ إنْ لم أضعْ حدّاً لهذه "المهزلةِ " بحسبِ تعبيرها , وكان ذلك أمامَ نغم ومروة.. يجبُ أنْ أراكَ لنناقشَ الأمرَ منفردَيْن .. و بما أنّه لا وقتَ لدينا لتبادلِ الرسائلِ والاتفاقِ على موعدٍ محدّدٍ , فليكنْ ذلكَ يومَ الأحدِ القادمِ في المدينة أمامَ مبنى البريدِ , سأكونُ هناكَ برفقةِ مروة لأُرسلَ رسالةً إلى سمير ! وعندما ترانا كنْ حذراً أثناءَ اقترابكَ

منّا و تأكّدْ أنْ لا أحدَ يراقبنا إلى اللقاء يا عمري .. حبيبتكَ قمر .).

- " أرأيتَ يا وليد ؟ "

- " لا , لم أرَ شيئاً ! لكنّني أراكَ مبتهجاً .. وسأُبهجكَ أكثرَ عندما ألفتُ نظركَ إلى أمرٍ أغفلَكَ الهمُّ عنه : غداً امتحانُ اللغةِ العربيّةِ ! "

- " أعلمُ هذا .. ما الغريبُ في الأمرِ ؟ "

- " أيّها الأبلهُ , غداً ستكونُ جوّالاً بين القاعاتِ وستكونُ لكَ حرّيّةُ التنقّلِ من قاعةٍ إلى أُخرى لتوضيحِ الأسئلةِ وتصحيحِ أخطاءِ الطباعةِ و غيرِ ذلكَ . "

- " حقاً إنّني أبلهٌ ! ... سأسكنُ غداً في القاعةِ الثامنةِ . "

في صباحِ اليومِ التالي , صحوتُ باكراً رغم نومي متأخّراً .. حلاقةٌ للذقنِ .. كيٌّ الملابسِ .. زخّاتٌ منَ العطرِ .. إفطارٌ هادئٌ , ونغادرُ إلى المدرسةِ مبكريْنْ !

أراكِ تدخلينَ وتبتسمينَ .. تلويحةٌ خفيّةٌ من يدكِ
الناعمةِ من البعيدِ .. تصعدينَ ا لدرجَ .. أنتبهُ إلى أنَّ
سحر التي لم تكنْ برفقتكِ تتلكّأُ في الصعودِ .. تنظرُ
إليَّ بعينينِ تعتذرانِ فأردُّ بنظرةٍ معاتبةٍ ..
يبدأُ الامتحانُ فأبدأُ بالتّجوالِ .. أدخلُ قاعتَكِ متلهّفاً
ولا أجدُ عناءً في العثورِ عليكِ .. تتلاقى نظرتي
وابتسامتِكِ .. أقولُ بلهجةٍ مطمئنةٍ :
- " صباح الخير يا طلاّبُ ! أنا هنا لتوضيحِ أيِّ
غموضٍ قد تعتقدون أنّهُ موجودٌ في الأسئلةِ ..
هل من سؤالٍ ؟ "
تبتسمينَ من جديدٍ , وتقولُ عيناكِ :
- " اشتقتُ إليكَ كثيراً , و انتظرتُ طويلاً سماعَ
صوتكَ المريحِ . "
تجيبُ عيناياَ :
- " أُحبُّكِ و أحترقُ شوقاً للقائكِ . "
صوتُ حنان يفزعني وهي تقولُ :

- " أنتَ مطلوبٌ في الأولى , أستاذ رعد ! "

وخِلتُها ستقولُ : " أنتَ مطلوبٌ حيّاً أو ميتاً .. " , فغادرتُ قاعتكِ من دونِ القدرةِ على منعِ نفسي من توجيهِ نظرةِ امتعاضٍ إليها .. بينما بقيتْ رابضةً في قاعتكِ .

خرجتُ من القاعةِ الأولى لأمرَّ بوليد الذي همسَ :

- " تأخّرتَ في الثامنةِ , دعْها تكتب بهدوءٍ! "

ابتسمُ وأتّجهُ نحوَ قاعتكِ , و كأنّني لم أعدْ مكترثاً بالعيونِ المزمجرةِ التي استقبلتني هناكَ ثانيةً .. عيناكِ هما همّي الوحيدُ .. إنَّ تأمّلاً فيهما يبعثُ على النشوةِ فيسري في جسدي ما يشبهُ الإحساسَ المتولّدَ بعدَ تنهيدةٍ عميقةٍ .. تنظرينَ إلى حنان القابعةِ هناكَ , ثمَّ إليَّ , ثمَّ إلى ورقتكِ.. تغادرُ حنان القاعةَ فأراكِ تكتبينَ شيئاً على المقعدِ وتغطّينهُ بورقتكِ .. ثمَّ تنظرينَ مستفهمةً .. لا أجرؤُ على الاقترابِ منكِ .. تفهمينَ اللعبةَ فترفعين يدكِ متظاهرةً بالاستفهامِ عن شيءٍ ما :

– " أستاذ رعد ! "

أقفز نحوكِ و أنحني مكوّراً جسمي فوقَ مقعدكِ وكأنّني أحتضنكِ , و أتنشّقُ عطركِ بعمقٍ , فتتظاهرينَ ثانيةً بتوجيهِ سؤالٍ :

– " ما المقصود هنا .. ؟ "

وتشيرينَ بإصبعكِ إلى موضعٍ في ورقةِ الأسئلة تجاهلتهُ ورحتُ أبحثُ عمّا كتبتِ فوقَ المقعدِ .. تشيرينَ إلى ذلكَ بطرفِ قلمكِ فأقرأُ تأكيداً و تحديداً لساعةِ موعدنا: (الأحد 19 / 1,الساعة 9 ,أحبك) .. ثمَّ تغطّينَ ذلكَ بورقةِ الأسئلةِ فأستقيمُ و أقولُ بصوتٍ مسموعٍ :

– " الأسئلةُ واضحةٌ و لا تحتاجُ إلى توضيحٍ ! "

صوتُ حنان من جديدٍ :

– " إلى القاعةِ الرابعةِ ! "

تطولُ جولتي متنقّلاً بين القاعاتِ , و أعودُ إلى قاعتكِ لأجدها خاليةً .. لنْ أراكِ قبلَ مضيِّ ثلاثةِ أيامٍ ! يا ويحَ صبري !

انتظرتُكَ أيُّها الأحدُ دهوراً .. وها أنتَ تأتي الآنَ .. أنطلقُ إلى المدينةِ بصحبةِ وليد الذي أمضى ضيفاً في قريتي ثلاثةَ أيّامٍ أعانني فيها على الصبرِ .. أودّعهُ في محطةِ الباصاتِ و أتوجّهُ إلى مبنى البريدِ لأجدكِ تنتظرين برفقةِ مروة تحتَ شجرةِ زيزفون .. أكتشفُ أنّها أكبرُ سنّاً منكِ .. عيونُكما متشابهةٌ لكنَّ بشرتَها حنطيّةٌ .. تستقبلني بابتسامةٍ وتحديقٍ جعلاني أقفُ برهةً عاجزاً عن الكلامِ ما خلا عبارةً ردّدتُ ها ثلاثَ مرّاتٍ :(كيفَ الحالُ ؟) . تنقذني مروة من الارتباكِ :

- " أنا مروة , أختُها الكبرى . كنتُ متشوّقةً للتعرّفِ إليكَ لكثرةِ ما حدّثتْني عنكَ .. أنتَ تماماً كما وصفتْكَ .. إنّها بارعةٌ في التعبيرِ والوصفِ ! "
- " يشعرُني كلامُكِ بالخجلِ , وحقّاً , يسرّني التعرّفُ إليكِ .. لم تحدّثْني قمر عنكِ سابقاً , وبصراحةٍ أقولُ : إنّني لم أتخيّلْ أنّكِ الكبرى , و تصوّرتُ أنّكِ طفلةٌ صغيرةٌ , عذراً ! "

– " هذه الطفلةُ الصغيرةُ ستتركُكما لمدّةِ نصفِ ساعةٍ .. لا نستطيعُ البقاءَ أكثرَ ..أستأذنكما الآنَ!"

يا لسعادتي ! أنا و أنتِ معاً في لقائنا الأوّلِ .. تراودني رغبةٌ عنيفةٌ باحتضانكِ و شدّكِ إلى ضلوعي ! وأقرأُ في عينيكِ رغبةً مماثلةً .. تسارعين إلى القولِ بصوتٍ دافئٍ:

– " ما رأيكَ في المشي قليلاً لنبتعدَ عن هذه العيونِ الفضوليّةِ ؟

– " تعالي ! أعرفُ الكثيرَ هنا من الشوارعِ الخاليةِ , لكنْ إنْ أردتِ مكاناً محدّداً فلا بأسَ . "

– " لا , لا .. نتمشّى فقط ! ولا ينبغي الابتعادُ كثيراً.. دعنا نذهب إلى تلكَ الحديقةِ ! "

– " أحبُّكِ .. و اشتقتُ إليكِ . "

– " و أنا كذلكَ ! "

– " أنتِ ماذا ؟ "

- " كتبتُ لكَ ذلكَ .. لا تقلْ إنّكَ لم تقرأْهُ . "

- " الوقعُ على المسامعِ يختلفُ جدّاً عن الوقعِ على الأبصارِ والمسامعِ معاً .. هيّا ! إنّني أنتظرُ ! "

- " أُحبُّكَ .. و اشتقتُ إليكَ ! "

كانتِ المرّةَ الأولى التي أسمعُ فيها هذه العبارةَ من مخلوقٍ غيرِ أمّي ! كانتْ كلماتُكِ ألحاناً عزفتها أناملُ ملائكيّةٌ على قيثارةٍ إلهيّةٍ .. و كانَ صوتكِ غناءً فيروزيّاً في صباحٍ دافئٍ .. تراقبينَ ردّةَ فعلي و تقرئينَ فرحي ثمَّ تتابعينَ :

- " هلْ أنتَ مسرورٌ الآنَ ؟! "

ولا تنتظرينَ جواباً لتسترسلي :

- " منذُ اللحظةِ الأولى التي رأيتُكَ فيها , شعرتُ بأنّكَ ملاذيَ من الشرورِ .. أحببتكَ و تعذّبتُ كثيراً كي أتأكّدَ من عواطفكَ .. ويومَ عرّفتني والدتي , استجوبتْني مروة فحكيتُ لها كلَّ شيءٍ .. كلَّ شيءٍ و الدموعُ كانتْ تغسلُ

جراحي ! تعاطفتْ معي ووافقتْ على لقائنا شريطةَ أنْ تكونَ مع نا .. إنّها تمارسُ دورَ الأمِّ الآنَ , ولديها من الحنانِ ما يكفي لهذا ! ولقد طلبتْ أنْ نتناقشَ وصولاً إلى حلٍّ معقولٍ قليلِ الضررِ و بعيدٍ عنِ الطّيشِ و التّهوّرِ !

لقدْ وضعتُ قبلَ قليلٍ رسالةً في البريد , موجّه ةً إلى سمير , أخبرُهُ فيها بأنّني اكتشفتُ أنّني لا أحبُّهُ و لا أعتقدُ أنّني سأصبحُ أمّاً لأطفاله , ولن يجمعنا بيتٌ واحدٌ , و أنَّ من علاماتِ الرجولةِ ألاّ يرتضيَ بشريكةٍ لا تحبُّهُ و أُجبرتْ على الزواجِ بهِ! كنتُ قاسيةً عليهِ .. و ربّما جرحتُ مشاعرهُ . "

تصمتينَ قليلاً ثمّ تجهشينَ بالبكاءِ .. و تتابعينَ متأتئةً :

– " أستاذ رعد ! أريدكَ أنتَ و لا أريدُ سواكَ ! و لا تخشَ شيئاً , فلم أُخبرْه شيئاً عنكَ .. بل كانَ كلُّ كلامي له مستنداً إلى عدمِ قدرتي على

الاستمرار بلعبِ دورِ الخطيبةِ الحبيبةِ .. ورجوتُهُ أنْ يفسخَ عقدَ الزواجِ ويعتقنَي.. "

أراكِ تنهارينَ أمامي , و أجدُنا قبالةَ الحديقةِ فأطلبُ التوجّهَ نحو مدخلِها ونجلسُ على حافّتهِ الإسمنتيّةِ حيثُ تحيطُ بنا نباتاتُ الجوريِّ الجرداءُ .. أجولُ بناظريَّ في الحديقةِ فأجدُ ها شبهَ خاليةٍ في هذا الوقتِ الباكر !

أقولُ بعدَ أن هدأتِ :

- " أحسستُ بكلِّ هذه اللحظاتِ التي مررتِ بها .. وحسبتُ حساباً لكلِّ كلمةٍ قلتِها .. ولم أتوقّعْ أنْ تكوني جريئةً إلى هذا الحدِّ في مخاطبةِ سمير ! وأقولُ لكِ بصراحةٍ : لقد عرفتُهُ في الجامعةِ شابّاً حسنَ الخلقِ و محترماً , و لا أعتقدُ أنّهُ يرضى الزواجَ بفتاةٍ لا تُحبُّهُ ! "

- " و أنا أعتمدُ كثيراً على هذه الناحيةِ , لذلكَ حاولتُ في رسالتي أنْ أستثيرَ مشاعرَهُ

ليرفضَني.. أعرفُهُ أكثرَ ممّا تعرفهُ .. إنّهُ شهمٌ ومهذّبٌ , لكنّهُ يحبُّني حبّاً جمّاً , وهو متعلّقٌ بي منذُ طفولتي , والأقربُ إليَّ من بينِ جميعِ أخوتهِ , ولديهِ حيّزٌ كبيرٌ من الحبِّ و الاحترامِ لدى والديَّ , بل ربّما أَحبَّهُ أبي أكثر مما تحبُّهُ أمّي ! و هو كريمٌ لا يبخلُ عليَّ بشيءٍ , ويغدقُ عليَّ بالهدايا الثمينةِ كلَّ شهرٍ , و يرسلُ إليَّ كلَّ ما تتمنّاهُ فتاةٌ في سنّي حتّى المصروفَ اليوميَّ.. كلُّ هذا , و لم أحبَّهُ ! "

- " جعلتِني أشعرُ بالغيرةِ الشديدةِ منهُ في هذا الوقتِ ! "

- " لكنْ , عليكَ ألاّ تحسدَهُ , لأنّني لكَ و لستُ لهُ! أحبُّكَ , و اللهِ إنّي أحبُّكَ ! "

أشعرُ برغبةٍ في ضمّكِ و لا أجرؤُ على فعلِ ذلكَ , لكنّني وجدتُ يدي تمتدُّ لتمسكَ بيدكِ التي استسلمتْ في راحتي .. خيراتُ الدنيا و كنوزُها الآنَ في يدي ! الآنَ

أستطيعُ أنْ أموتَ غيرَ آسفٍ على شيءٍ , أو أحيا متربّعاً على عرشِ الكونِ ! تتدافعُ كلماتي متزاحمةً لتسبقَها إليكِ كلمةُ (أُحبُّكِ) فأكرّرُها مرّاتٍ و مرّاتٍ ويدُكِ سجينةٌ في يدي .. ثمَّ أتابعُ :

– " لقد كتبتُ لكِ شعراً . "

– " أعطنيهِ لأقرأَهُ ! "

– " تقرئينَ أم تسمعينَ ؟ "

– " أسمعُ . ألم تقلْ إنَّ الوقعَ على المسامعِ أجملُ؟"

أُخرجُ الورقةَ من جيبي و أفتحُها ثمَّ أدفعُ ها إليكِ لتتناوليها بيدكِ البعيدةِ مبقيةً يدَ كِ الأسيرةَ في مكانها .. وأُقولُ :

– " هذه القصيدةُ بعنوان { حُلم }

* سأكتبُ فيكِ قصيدتي

لأقصَّ فيها حكايتي :

*إنّي أراكِ ممدّدهْ , متقلّبْ, متوسّدهْ

العينُ ترقصُ حائرهْ
أمّا رموشكِ , يا ترى
أتحكي لنا ما جرى ؟
* تعالَ يا نومي العميقْ
تعالَ يا حلمي الهنيءْ
حبيبتي تبغي الهدوءْ
مليكتي ترجو السلامْ
لكنَّ ألسنةَ الحريقْ
في أوداجها تنوءْ
مثل أسرابِ الحمامْ
* ليتَ الحكايا تختفي
ليتَ الوساوسَ تنمحي
ليتَ أصواتَ الخليقهْ .. يصيبُها داءُ السّكوتْ
مثل أطلالٍ عتيقهْ .. لا تعيشُ و لا تموتْ
* هذي عيونكِ أشرقتْ
هذي خدودكِ أزهرتْ

وشفاهكِ المتأجّجهْ .. إلى عناقي استسلمتْ ."

– " ما أروعكَ يا حبيبي ! أنتَ شاعرٌ حقيقيٌّ ! "

– " عيناكِ تلهماني فأكتبُ . "

تقولينَ هامسةً :

– " أأقولُ شيئاً من دون أن تغضبَ ؟ "

– " ما هو ؟ "

– " عدني أوّلاً ألاّ تغضبَ ! "

– " طيّب .. لن أغضبَ , أعدكِ ! "

– " كتبَ لي سمير كثيراً من القصائدِ .. و كنتُ أحسُّ بشيءٍ من الصدقِ في ها , لكنّها ليستْ كقصائدكَ طبعاً .. وفي الآونةِ الأخيرةِ لم يعدْ لها سحرها و لا تأثيرها عليَّ .. حتّى أنّني بتُّ أقرأُ رسائله ثمَّ أمزّقها .. "

– " كما تريننني , لمْ أغضبْ ! "

تضحكينَ و تقولين بلهجةٍ مطمئنةٍ :

– " فلتكتبِ القصائدَ كلُّ الدنيا , سمير أو غيره ..
سأكونُ قمرَكَ فقط , لكَ أنتَ فقط . "

تقولين هذا وتحرّرينَ يدكِ بسرعةٍ فأشعرُ بالفزعِ , و أراكِ تنتصبينَ قائلةً :

– " تلكَ هي مروة ! إنّها تبحثُ عنّا .. "

تلّوحينَ لها بيدكِ .. نمشي لنصلَ إليها .. إنّها متوتّرة قليلاً و لكنّها ترسمُ ابتسامةً على ثغرِ ها وهي تقو لُ معاتبةً بلهجةٍ دافئةٍ :

– " لقد تأخّرنا .. قلتُ لكم نصفَ ساعةٍ فقط , ومرَّ مثلها وأنا أبحثُ عنكما .. هيّا يا قمر .. هيّا ! "

تمسكُ بيدكِ وترحلان .. تودّعينني بنظرةٍ خاطفةٍ وابتسامةٍ حزينةٍ قبيلَ ركوبكما سيّارةَ الأجرةِ .. ولم يتبادرْ إلى ذهني وقتَها سوى ا ستنشاقِ عبيرِ يدكِ الذي تشرّبتهُ كفّي ! وخطرتْ لي فكرةٌ صبيانيّةٌ : توجّهتُ إلى بائعِ عطورٍ أحضرَ لي عدّةَ قواريرٍ صغيرةٍ من العطورِ النسائيّة ووضعها أمامي على طاولتهِ الزجاجيّةِ وراحَ

ينزعُ سداداتها الفلّينيّةَ لأشمَّها بالتناوبِ مع راحةِ يدي التي عشّشَ عطركُ فيها .. شمّةٌ من هنا وأُخرى من هناكَ حتّى وجدتهُ .. إنّه عطرُ الليلكِ ! نعم , الرائحةُ ذاتها .. أجرّبُ عدّةَ مرّاتٍ لأتأكّدَ , و يتأكّدُ البائعُ بنفسهِ شامّاً يدي .. ثمَّ أطلبُ منهُ قارورةً فيريني عدّةَ أنواعٍ من الزجاجاتِ الفارغةِ , أنتقي إحداها .. ثمَّ يبدأُ بحركاتٍ رشيقةٍ ملأها بالعطرِ بعدَ مزجهِ بموادَ أُخرى , ويضعُ الزجاجةَ في كيسٍ صغيرٍ أحمر اللونِ ويربطُ طرفهُ العلويَّ بشريطٍ من السيلوفانِ الأحمرِ شادّاً نهاياتِهِ بسكّينٍ لتصبحَ نابضيّةَ الشكلِ .

أمضيتُ ما تبقّى من العطلةِ الانتصافيّةِ في كتابةِ القصائدِ واليوميّاتِ , و خصّصتُ لذلكَ دفتراً كبيراً دوّنتُ فيهِ أدقَّ التفصيلاتِ .. هكذا كنتُ أشعرُ بوجودكِ معي دوماً , وهكذا يبقى طيفُ كِ حاضراً يساهرُ ني ويسامرُ ني .. كنتُ في حالةٍ مزريةٍ من القلقِ والتّوتّرِ والانفعال أثورُ معها لأتفهِ الأسبابِ .. وقد لا حظَ أهلي

ذلكَ و خاصّةً أختي التي استفسرتْ كثيراً و لم تحصلْ على جوابٍ مقنعٍ ! لكنّها , بحسّها الأنثويِّ , عرفتْ أنّني أصبحتُ عاشقاً وكانتْ تلمّحُ إلى هذا باستمرارٍ ! أمّا والدي و أخوايَ فقد كانوا يسألون كلَّ بضعةِ أيّامٍ : (ألمْ تجدْ عروساً بعدُ؟!).. وكان كلَّ صباحٍ يتكرّرُ مشهدُ أمّي المؤنّبةِ : (ألا زلتَ ساهراً ؟ هذا حرامٌ واللهِ !) .. أحسستُ بنفسي غريباً بينهم ولم أعدْ مهتمّاً بالأمورِ التي عهدوني مهتمّاً بها .. تغيّرتْ عاداتي وطباعي , وسيطرتْ على كاملِ بنياني فكرةٌ وحيدةٌ هي : أنتِ !

أعودُ متلهّفاً للبدءِ بدوامِ الفصلِ الثاني .. إنْ لم يغيّروا برنامجَ الدروسِ فستكونُ أولى الحصصِ في صفّكِ .. وهذا ما حصلَ .. أدخلُ إلى صفّكِ و أُسلّمُ على الطلاّب والطالباتِ , ولكنتِ غير موجودةٍ .. أنتظرُ وصولكِ متأخّرةً لكنْ بلا جدوى ! تنتهي الحصّةُ و لا تحضرين بينما لمْ أجرؤْ على سؤالِ سحر عنكِ .. حتّى ابتسامتُها الساخرةُ المتكرّرةُ لم تستفزَّني لسؤالها!

أربعةُ أيّامٍ مرّتْ , و لا تحضرين ! و هواجسُ شرّيرةٌ تملّكتني رغم تجدّدِ أملي في كلِّ يومٍ أنْ تحضري مختلقاً لكِ التبريراتِ و الأعذارَ : ربّما كنتِ مريضةً , مسافرةً , ربّما هناكَ مشاكل في العائلةِ ! ويسبّبُ لي طولُ غيابكِ في النهايةِ تدهوراً صحيّاً لقلّةِ الطعامِ وكثرةِ السهرِ والتدخينِ فيقترحُ وليدُ عليَّ الحصولَ على استراحةٍ مرضيّةٍ فأرفضُ :

- " قد تحضرُ أثناءَ غيابي ! "
- " أعدكَ عندها أن أسافرَ إلى قريتكَ و أُحضرَ كَ في اليومِ نفسهِ .. سأقطعُ دوامي و أذهبُ إليكَ! ما رأيكَ ؟ "
- " لا , لم تعجبني الفكرةُ . "
- " انظرْ في المرآةِ ! لن ترى إلاّ شيخاً هرماً أكلتهُ السنون و مصائبُ العمرِ ! أنتَ بحاجةٍ لمن يساندُكَ و يعينُكَ على المشيِ .. هل أشتري لكَ عكّازاً ؟! "

- " كفاكَ سخريةً و ساعدني على إيجادِ حلٍّ ما بدلاً من ترّهاتكِ هذه ! "

تدخلُ حنان في أحدِ الأيّامِ إلى صفّكِ وتسألُ سحرَ عن غيابكِ :

- " سحر ! ماذا تعرفين بشأنِ غيابِ قمر عن الدوام؟"

- " تركتِ المدرسةَ .. لقد منعها أهلُها عن متابعةِ الدوّامِ لحاجتهم إليها في أعمالِ المنزلِ فوالدتها مريضةٌ ! لكنّها ستتقدّمُ للامتحانِ معَ الحرائر ! "

- " لا بأسَ ! خذي هذا الإنذارَ و سلّميهِ لذويها فليسَ لي ثقةٌ بأحدٍ سواكِ !"

لحقتُ بها عندما غادرتْ و دخلتُ غرفتَهَا وتظاهرتُ بحاجتي إلى علبةِ طباشيرٍ فناولتني واحدةً من دُرجها ونظرتْ إليَّ منتظرةً معرفةَ السببِ الحقيقيِّ لوجودي هناكَ على غير المعهودِ , فقالتْ بلهجةِ متودِّدَةٍ :

- " هل تريدُ شيئاً آخرَ , أستاذ رعد ؟ "

- " أريدُ أن أسألَ حولَ الإنذارِ الذي وجّهتهِ لأهلِ قمر .. هل يجبرُهم على إعادتها إلى المدرسةِ ؟ "

- " لا , لأنّها ليستْ في سنِّ التعليمِ الإلز اميِّ ! وعلى كلِّ حالٍ , إنْ لم يكنْ في نيَّتِهِم إعادتُها إلى الدوامِ فهذا الإنذارُ لا يجدي نفعاً ! لكنّنا مجبرون على توجيهِ مثلِ هذهِ الإنذاراتِ قبلَ فصلِ المنقطعين عن الدوام ! و هذا شأنُ جميعِ الفتياتِ المخطوباتِ : لا يَكُملنَ سنةً في المدرسةِ بعدَ خطبته نْ , و حجّةُ مساعدةِ الأمّ في البيتِ شيءٌ مستهلكٌ ويكرّرُ نفسه في مثلِ هذه الحالات ! "

تلقّيتُ كلامَها بهزّاتٍ متواليات من رأسي , و وجدتُ نفسي مجبراً على تبريرِ سؤالي :

- " ونحنُ كمدرّسين , ماذا علينا أنْ نفعلَ ؟ "

- " إذا تمَّ فصلُها ستشطبُ اسمَها من دفترِ تقديرِ الدرجاتِ ! أَوَتعلمُ شيئاً ؟ لا أعتقدُ أنّها ستعودُ , فلشطبها من الآن ! "

كنتُ أعلمُ أنَّها تقصدُ شطبَكِ من فكري وكنتُ أريدُ أنْ أسألَها: (كم حبيباً شطبتِ من حياتكِ قبلَ الآنَ ؟) لكنّها قطعتْ عليَّ الطريقَ عندما قالتْ :

- " طلاّبُكَ يُحدثونَ ضجّةً ! "

أينَ أنتِ الآنَ ؟ لقد منعوكِ عنّي .. لا بدَّ أنَّ أمراً ما قد حدثَ أثناءَ العطلةِ .. لماذا لم تراسليني ؟ ومن سيحضرُ رسائلكَ ؟ أأكتبُ إليكِ شيئاً و أرسلُهُ مع سحر ؟ لكنّها قد تحملُ رسالتي فوراً إلى أمّكِ .. ما العملُ ؟

في إحدى الاستراحاتِ , دخلَ مديرُ الثانويّة إلى قاعةِ المدرّسينَ يحملُ دفتراً كُتبَ عليهِ بخطٍّ مزخرفٍ (قراراتُ الفصلِ) وقد أمسكهُ بيدهِ واضعاً إصبعَهُ بينَ فرجَتَيْ صفحاتهِ , وطلبَ منّا التوقيعَ عليهِ ثمَّ أعطاهُ لأوّلِ زميلٍ في القاعة فوقّعَ ومرّرهُ إلى جارتي .. قرأتُ

قراراً يقضي بفصلكِ من المدرسةِ بسببِ تجاوزكِ عددَ أيّامِ الغيابِ المسموحَ بهِ .. وقّعتُ و مرّرتهُ .. وسمعتُ المديرَ يقولُ :

– " اشطبوا الاسمَ من دفاترِ التقديراتِ ! "

كلٌّ يطلبُ شطبَكِ .. بدأَ أهلُكِ بشطبي من سجلِّ حياتكِ و الآخرون يشطبونكِ الآن .. هكذا نصبحُ مشطوبان .. هل يعطينا هذا أيَّ امتيازٍ مشتركٍ ؟! يعلنونَ الحربَ عليكِ لأنّكِ أعلنتِ الحبَّ ! (اشطبوها !) كلمةٌ يسهلُ عليهم قولُها و يستحيلُ عليَّ فعلُها ! وهذا ما حصلَ؛ رفضتُ أنْ أشطبَ اسمَكِ من دفتري , وطلبتُ من سحرَ أنْ ترحلَ عن مقعدكِ لتجلسَ إلى جوار منى الوحيدةِ في مقعدها :

– " لكنّني مرتاحةٌ جدّاً هنا ! "

– " لا ينبغي أن تكوني وحيدةً بعدَ فصلِ قمر ! "

وكنتُ كلّما طلبتُ من الطلاّبِ كتابةَ شيءٍ ما نقلاً عنِ السبّورةِ أتوجّهُ إلى مقعدكِ لأجلسَ عليهِ معتقداً أنّكِ لا

زلتِ هنا .. أُناجيكِ وأُكلّمكِ .. أتلمّسكِ و أشمُّ عطركِ .. غيابُكِ حوّلَ صفَّكِ إلى ما يشبهُ المأتمَ .. وبدتْ على وجوهِ زملائكِ وزميلاتكِ مسحةُ حزنٍ , أو خُيّلَ إليَّ ذلكَ.. أو ربّما تأثروا فعلاً بفقدانِ جوِّ المرحِ الذي كنتُ أُضفيه على دروسي وقد عجزتُ عن متابعةِ ممارستهِ .. حتّى في أثناءِ تلقّيَّ هداياهم بمناسبةِ عيدِ المعلّمِ , كنتُ أشكرهم مصطنعاً ابتسامةً زائفةً لا تلبثُ أنْ تزولَ فورَ ارتسامها !

أسابيعُ من العذابِ مرّتْ , وكلُّ يومٍ ينسخُ سابقَهُ بكآبةٍ متعاظمةٍ .. وفي إحدى الاستراحاتِ جاءَ بعضٌ من طلاّبِ صفّكِ .. كانوا سبعةً يقفونَ عند بابِ قاعةِ المدرّسينَ و صوتُ حنانَ يأمرُهم بالانصراف , و أسمعُ زميلكِ محمود يقولُ بصوتهِ المميّزِ :

– " نريدُ أنْ نكلّمَ الأستاذَ رعد قليلاً ! "

خرجتُ إليهم مسرعاً . يقولُ طارق :

– " أصحيحٌ أنّكَ لن تشاركَ في رحلةِ المدرسةِ , أستاذ ؟ "

– " نعم , لديَّ ما يشغلُ وقتي يومَ الرحلةِ . "

تقولُ وديان :

– " ألا يمكنُ تأجيلُ شغلكَ إلى وقتٍ آخرَ ؟ نحبُّ أنْ تكونَ معنا فالرحلةُ من دونكِ لا تساوي شيئاً!"

أقولُ راغباً في عدمِ إضاعةِ الوقتِ سدىً :

– " سأفكّرُ ولكنْ لا أعدُكم ! "

يقولُ محمود :

– " في الحقيقة , أستاذ رعد , لقد اتفقنا أنْ ننقطعَ عن الدوامِ بعدَ الرحلةِ مباشرةً , وستكون رحلتنا المحطّةَ الأخيرةَ لوداعِ مدرّسينا . "

– " سأفكرُ في الأمر ! "

كنتُ أكذبُ .. الرحلةُ من دونكِ لا تساوي شيئاً بل إنَّ حياتي بكاملها في غيابكِ لا تساوي شيئاً ..

في الغرفةِ مساءً يخبرني وليدُ بأمرٍ هامٍّ :

- " سجّلتُ أسماءَ ال غائبينَ اليومَ في الصفِ الحادي عشرَ العلميِّ ولمّا سألتُ عن سببِ غيابِ نغم , الطالبةِ المتفوّقةِ , قالوا لي إنّها خُطبتْ وستتركُ المدرسةَ , لكنَّ طالباً أضافَ : (هذه عادةٌ عندهم .. أختُها قمر من قبلُ خُطبتْ وفُصلتْ من المدرسةِ .). "

- " كانتْ لقمر شقيقةٌ هنا و لم أعرفْ بأمرها ؟ ! لقد أخبرتني أنَّ لها شقيقةً تدعى نغم , ولكنّها لم تخبرني أنّها في ثانويّتنا ! "

- " بل و متفوّقةٌ أيضاً , بالإضافةِ لكونها جميلةً جدّاً!"

- " و ستتركُ المدرسةَ ؟ والدهما مجرمٌ ,لا شكَّ في ذلكَ .. نعم , مجرمٌ يسرقُ من بناتهِ الحياةَ كمنْ يسرقُ من الشمسِ نورَها ! "

- " ليس هذا فحسب , بل أخبرني الطلاّبُ أيضاً أنَّ خطيبها هو ابن عمّتها ! لاحظْ هذا : الأولى لابنِ خالتِها و الثانيةُ لابنِ عمّتِها! "

- " أراهنُكَ بأنّهُ (سيكتبُ كتابـَها) ! إنّهُ يحملُ عُقداً بلا شكٍّ ! يخشى على بناتهِ الجميلاتِ وه و بذلكَ يشدُّ وثاقهنَّ جيداً ! "

- " هل يعني هذا أنّكَ استسلمتَ ؟ "

- " لا , أبداً . اسمعْ .. ابنتُهُ الكبرى مروة جميلةٌ جدّاً و هيَ غير مخطوبةٍ , هذا يعني أنّها تقاومهُ ! وستكونُ أملاً لي في الوصولِ إلى قمر .. "

- " أخبرني الآنَ ! لماذا لن تشاركَ في الرحلةِ ؟ أنتَ بحاجةٍ ماسّةٍ للترويحِ عن نفسكَ .. "

- " الأمرُ محسومٌ يا وليد ! لن أشاركَ , و أنتَ تعلمُ لماذا .. "

انقطعَ زملاؤكِ عن الدوامِ بعد رحلتهم مباشرةً .. و في الأسبوعِ الأخيرِ من شهرِ نيسانَ أخبرني وليد أنَّ نغم

عادتْ إلى المدرسةِ تلبسُ خاتمَ خطبةٍ , و اقترحَ أنْ أرسلَ إليكِ رسالةً معها .. كنّا في المدرسةِ و خشيتُ ألاّ تستمرَّ نغم بالدوامِ فلم أصبرْ حتّى عودتنا إلى الغرفة بل دخلتُ إلى صفّكِ الفارغِ خلسةً و أقفلتُ بابَهُ و جلستُ في مكانكِ ثمَّ بدأتُ أخطُّ لكِ رسالتي :

(حبيبتي .. أجلسُ على مقعدكِ .. تماماً حيثُ كنتِ تجلسينَ .. عطركِ لا زالَ معشّشاً هنا .. جسدُكِ لا زالَ ملتصقاً هنا .. كُتبُكِ و دفاترُكِ , كلُّكِ هنا .. أتنشّقُ رائحتَكِ فتغمرني موجةٌ من الشّوقِ جارفةٌ .. أحتاجُ إليكِ ! أشتاقُ إليكِ ! غيابُكِ سبّبَ لي فراغاً رهيباً وكآبةً مستديمةً .. خاطبيني , أرجوكِ ! اكتبي لي و اشرحي ما حدثَ ! اكتبي لأنَّ الكتابةَ مخرجُنا الوحيدُ منَ العذابِ والأوهامِ .. لا تكوني قاسيةً إلى هذه الدرجةِ فأنا لا أستحقُّ هذا الجفاءَ ! تعالي فأنا من دونكِ عدمٌ بلا معنىً و نكرةٌ بلا وجودٍ ! لقد فقدتُ في غيابكِ أيَّ لونٍ لحياتي وتكسّرتْ كلُّ المعاني الجميلةِ في شخصيّتي ,

وأصبحتُ عاجزاً حتّى عن إعطاءِ الدروسِ ! أعودُ
لأسألَكِ : ما الذي حدثَ ؟ أخبريني يا قمري !
والآنَ , لستُ أدري أيكونُ الوقتُ مناسباً لشيءٍ من
الشعرِ أم أنَّ شعري قد فقدَ لديكِ حضورَهُ مثلما فقدتُ
حضوري ؟
عودي رجوتُكِ بالأحبابِ والسهرِ
فأنتِ لدربيَ مثلُ الشمسِ للبشرِ
والرّوحُ ظمأى لصوتٍ طابَ مسمعهُ
و رفّةِ الهدبِ تدعو هاجسَ الشعِّرِ
يا نشوةَ الروحِ يا أحلاميَ الخُضرَ
أهديكِ روحي تحذو نشوةَ السَكَرِ
يا ليلُ قلْ لي متى قمري تُسامرُني
لتجعلَ الخمرَ في الأقداحِ كالمطرِ؟
لهمسَ الشوقُ في ألحانِ قبلتِهِ
همساً حنوناً كهمسِ النَّايِ للوترِ

أَأنتَ تخشى من شلاّلِ لُـمَّتِـها

تضيـعُ فيهِ كما السّـمّـارُ في السّمرِ ؟

أحبُّكِ .. و سأبقى أُحبُّكِ حتّى ينتهيَ الزمانُ ..

23 / نيسان / 1987 أسيرُ عينيكِ .).

أعطيتُ الرسالةَ لوليد و طلبتُ أن يكونَ حذراً في تسليمها لنغم .. و عادَ في فترةِ التبادلِ بين الدرسين ليقولَ هامساً :

- " و صلتِ الأمانةُ ! "

انتظرتُ أسبوعاً كاملاً على أحرَّ من الجحيمِ حتّى جاءني ردُّكِ .. طرقتْ نغم بابَ الصفِّ العاشرِ , وفوجئتُ برأسها يطلُّ و هي تستأذنُ لمخاطبتي خارجَ الصفِّ فخرجتُ إليها و قلتُ :

- " نعم ؟ ماذا تريدينَ ؟ "

همسَتْ بصوتٍ رقيقٍ :

- " أتسمحُ بإغلاقِ البابِ .. ليسَ لدينا متّسعٌ من الوقتِ وأخشى أنْ ترانا الموجّهةُ .. "

أغلقتُ البابَ و أبقيتُ يدي جاثمةً على مقبضهِ وقلتُ :

- " أأنتِ نغم ؟ "

- " نعم , و أعطتني قمر شيئاً لكَ . "

ثمَّ أخرجتْ من جيبها ورقةً تناولتُها بسرعةٍ و دسستُها داخل جيبي ثمَّ قلتُ :

- " كيفَ حالها ؟ "

- "إنّها بخيرٍ الآنَ ! لقد أوصتني أنْ أعلمَكَ أنَّ ه ذه هي الرسالةُ الأخيرةُ التي ستكتبُها . "

قالتْ ذلكَ و استأذنتْ بالانصراف و ذهبتْ .. وقفتُ قليلاً أراقبُ ابتعادَها و كلماتٌ كثيرةٌ حبستْ نفسها في داخلي تأبى الخروجَ .. عدتُ إلى صفّي متظاهراً بعدمِ الارتباكِ ..

هذه المرّة رجعتُ إلى غرفتي وجلستُ متردّداً في فتحِ رسالتكِ , كأنّني كنتُ أعرفُ ما تحويهِ .. و استطعتُ أخيراً بعدَ أن أبدأَ بالقراءةِ مثل متّهمٍ انتظرَ طويلاً نطقَ

القاضي بالحكمِ .. في كلِّ كلمةٍ طعنةٌ , وفي كلِّ حرفٍ كارثةٌ , وفي كلِّ سطرٍ لعنةٌ :

(الأستاذ رعد المحترم .. أكتبُ إليكَ بعد كثيرِ عناءٍ .. لقد عدتُ إلى رشدي الآ نَ بعدَ أن كفكفتُ دموعي وضمّدتُ جراحي .. أرجوكَ أن تعتبرَ كلَّ ما مرَّ علينا حلماً صحونا منهُ الآنَ .. لا أستطيعُ الاستمرارَ في علاقتنا ولن نكونَ معاً بعدَ الآن .. لقدْ تسبّبَ حبُّنا في كثيرٍ من المآسي و الأحزانِ فلَصبحتُ عدوّاً لكلِّ من في البيتِ.. وتعرّضتْ مروة للضربِ المبرّحِ لأنّها وقفتْ في صفّي مدافعةً عن حقّي في إبداءِ الرأيِ فقط !

وكانَ ردُّ أبي بلَفّهُ لا يريدُ لي أن أصبحَ عانساً مثلها إنْ وافقتُها رأيَها .. تصوّرْ يا سيّدي أنّهُ ينعتُها بالعانسِ وهي لا تزالُ في الرابعةِ و العشرين !

اعذرني يا سيّدي , لا أستطيعُ الاستمرارَ أكثرَ .. قدّرْ موقفي و احترمْهُ .. توقّفْ , أرجوكَ , عن كتابةِ الرسائلِ لأنّني لن أردَّ عليها بعدَ الآن .. ابحثْ عن فتاةٍ تكونُ

جديرةً بقصائدكَ فأنا لا أستحقُّها .. أرجوكَ ألفَ مرّةٍ أنْ تنساني و تبحثَ عن نفسكَ في فتاةٍ أُخرى ! لا أريدُ أن أخسرَ أيَّاً من أهلي أو أقاربي , حتّى سمير .. ما ذنبُهُ في كلِّ هذا ؟ أنَّهُ أحبَّني ؟

اعلمْ يا سيّدي أنّني لن أنسى ما حُييتُ ذلكَ المدرّسَ الفاضلَ الذي علّمني حبَّ الحياةِ و التمسّكَ بقشّةِ أملٍ ..لقد كتبتَ لي رسالتَكَ الأخيرةَ في الثالثِ والعشرينَ من نيسانَ و هو يومُ مولدي .. لكنّني سأنسى كلَّ الأعوامِ السابقةِ و أولدُ من جديدٍ بعيداً عن الطيشِ و المغامرةِ والتّسرعِ .. وكذلكَ بعيداً عن إبداءِ الرأي أو التفكيرِ أو حتّى الاعتراضِ .. لم أُخلقْ لأُحِبَّ ولا لأُحَبَّ و لن أكونَ حبيبتكَ ولا حبيبةَ أحدٍ آخرَ .. و سيعودُ سمير في الصيفِ ليتزوجَ بي و نسافرَ معاً .. و سأكونُ ربّةً لمنزلهِ و أُمّاً لأولاده..)

صوتُ سارة يقطعُ شرودي فجأةً و هي تسألُني ولا أفهمُ ما تقولُ فأسألها التكرارَ فتقول :

- " سمعتُ بأنَّكَ ستسافرُ .. ألم تعجبكَ مهنةُ التدريسِ ؟ "

- " بلى و لكنّني أبحثُ عن عملٍ في دولِ الخليجِ ولذلكَ راسلتُ بعضَ الأصدقاءِ هناكَ .. و أجهّزُ أوراقي حالياً على أملِ أنْ يكونَ ردُّهم إيجابيّاً . "

- " وماذا ستعملُ هناكَ ؟ "

- " ربّما في مركزٍ للاتصالات .. لي صديقٌ هناكَ وعدني أنْ يتدبّرَ ذلكَ . "

تتدخلُ أمُّ عبد الله وتقولُ بلهجةٍ يائسةٍ :

- " كلُّ شبّانِنا أصبحوا هناكَ ! لا أعلمُ ماذا يطيبُ لهم في الغربةِ و الابتعادِ عنِ الأهلِ ! .. يا حسرتي! مضى على عبد الله هناكَ سنتان و لم نستطعْ تزويجَهُ بعدُ ! "

تتحوّلُ سارة إلى العجوزِ لتسألَها عن عبد الله و يتخامدُ صوتهما عبرَ ضجيجِ ذكرياتي , فلأذكرُ ذلكَ اليومَ اللعينَ

عندما استدعاني مديرُ الثانويّةِ إلى مكتبهِ وكانَ يبدو محرجاً بعضَ الشيءِ وهو يسألني:

- " ما علاقتكَ بالطالبةِ قمر , أستاذ رعد ؟ "

فوجئتُ بسؤالهِ , و قبلَ أن أبتدعَ إجابةً تابعَ قائلاً :

- " لقد كانَ والدُها هنا منذُ قليلٍ , و .. و أراني بعضَ الرسائلِ .. و .. و ادّعى .. "

- " ادّعى أنّني كتبتُها ؟ نعم , أنا من كتبَها ! هل في الأمرِ جريمةٌ ؟ أليسَ هذا من حقِّ كلِّ إنسان؟ "

- " طبعاً لا . نحنُ في مدرسةٍ , وليسَ الأمرُ كما تتصوّرُهُ .. أنا لم أقرأْ تلكَ الرسائلَ لكنّهُ شرحَ لي مضمونَها وهو يحملُها ويلوّحُ بها أثناءَ حديثهِ مهدّداً بتقديمِ شكوى إلى الرقابةِ الداخليّةِ أو رفعِ دعوى يتّهمُكَ فيها بإغواء قاصر . "

- " وهل يستطيعُ ذلكَ ؟ "

- " طبعاً . فمنَ الناحيةِ المهنيّةِ أنتَ تخلُّ بالواجبِ الوظيفيِّ , ومن الناحيةِ القانونيّةِ , تُغوي طالبةً , و هي على ذمّةِ رجلٍ آخرَ أيضاً .. إنّي أُحذّركَ هنا وعليكَ أن تجدَ حلاّ ً يجنّبكَ الوقوعَ في كلِّ هذا."

- " إنّهُ رجلٌ معقّدٌ , إنّهُ مجرمٌ حقيقيٌّ ! "

- " لنْ ينفعَكَ إبداءُ رأيكَ فيه بقدرِ ما تنفعُ كَ مصالحتُهُ . "

- " مصالحتُهُ ؟ كيفَ هذا ؟ "

- " اذهبْ إليهِ و اعتذرْ ! وإنْ قبلتَ أنْ تفعلَ هذا أَذْهَبُ معكَ ! "

- " لا , لا , لن أفعلَ هذا مهما كلّفني الأمرُ , وليفعلْ ما يشاءُ ! "

- " لا تتسرّعْ في قرارِكَ قبلَ أنْ تفكّرَ مليّاً .. "

بدأَ مسلسلُ القسوةِ .. أنتِ أولاً ثمَّ أبوكِ المحترمُ ! من سيكونُ التالي ؟

أثناءَ الامتحانِ الأخيرِ حضرَ مديرُ الثانويّةِ الحنونُ إلى قاعتي وهمسَ في أذني :

- " وصلَ البريدُ قبلَ قليلٍ .. لقد اشتكاكَ إلى الرقابةِ الداخليّةِ و حدّدوا موعداً لاستجوابكَ يومَ السبت القادمِ , بعد نهايةِ العامِ الدراسيّ ! "

تتخلّيْنَ عنّي فتتخلّى عنّي كلُّ الدنيا , لكنّكِ لن تمنعيني من الكتابةِ .. سأكتبُ رغماً عنكِ .. تردّينَ أو لا تردّينَ هذا شأنكِ , لكنّني سأواصلُ الكتابةَ .. أكتبُ رسالتي وأسلّمها إلى نغم عند خروجها من قاعتها .. ترفضُ استلامَها أوّلاً لكنّني أُصرُّ عليها وأقول :

- " من فضلكِ , هذه آخرُ مرّةٍ .. "

تأخذها مرغمةً و تدسُّها في جيبها بحركةٍ جعلتني أعتقدُ بأنَّها لن توصلَها إليكِ .. كانتْ على ورقةٍ حمراءَ و مغلّفةً بإتقانٍ :

(مليكةَ الحبِّ الأبديِّ .. إن كنتِ تعتقدينَ بأنّني سأتوقّفُ عن حبّكِ لمجرّدِ قراءةِ رسالتكِ الأخيرةِ ,

فأنتِ مخطئةٌ .. الحبُّ ليسَ سلعةً نشتريها ونبيعها إذا مللنا منها ! الحبُّ أسمى من أن تقرّريهِ لوحدكِ .. لقد صنعناهُ معاً ولا حقَّ لكِ في تدميرهِ مهما كانتِ الأسبابُ و تحتَ وطأةِ أيِّ ظرفٍ !

أُحبُّكِ و سأبقى على حبِّكِ حتّى أموتَ , بل حتّى ما بعدَ الموتِ .. أحبُّكِ شابّاً أو شيخاً هرماً أو جثّةً هامدةً أو رميماً أو طيفاً هائماً أو سراباً .. سأبقى على حبِّكِ حتّى تتوقّفَ الشمسُ عنِ الشروقِ .. ليسَ لكِ الحقُّ في الانسحابِ الآنَ .. أنا من سيكفكفُ دموعَ كِ .. سيدمّرني الندمُ إنْ سبّبتُ لكِ حزناً أو ألماً ؛ إنَّ دمعةً من عينيكِ الملا ئكيّتينِ سالتْ بسببي ستتحوّلُ إلى مُهلٍ يشويني ويحرقُ عينيَّ .. إنَّ زفرةَ همٍّ سبّبتها لكِ ستستحيلُ عاصفةً جحيميّةً تجرفني وتدمّرني .. لن أسمحَ لنفسي إلاّ أن أكونَ منبعَ ضحكاتكِ و سرَّ ابتساماتكِ و عنوانَ راحتكِ وسعادتكِ .. و إنّي أُحبُّكِ..

و أشتاقُ إليكِ و هذا ما لا تستطيعينَ ردعَهُ مهما فعلتِ ..
و سأُواصلُ غناءَ قصائدي القمريّةِ , شئتِ أم أبيتِ ..

* قدْ أفقدُ عقلي .. قد أشقى
قد أتعبُ , أَهلِكُ أو أفنى
قد أبقى أو قد لا أبقى
قد تصبحُ قصّةُ أحلامي سرَّ الأسرارْ
لكنَّ غرامكِ في دربي قدرُ الأقدارْ

* حبُّكِ قدْ توّجَ أفراحي
حبُّكِ زيّنني .. هذّبني
حبُّكِ في ليلي مصباحي
حبُّكِ في عتمةِ أحزاني نورُ الأنوارْ

* ردّي إلى قلبي الكسيرِ فؤادَهُ ... لا تدفعيهْ
و الشهدُ من شفتيكِ حانَ قطافُهُ ... هيّا اسكبيهْ
و الصّدرُ إنْ مالَ إليكِ بضمّةٍ ... لا تمنعيهْ
يا طفلةً ملأَ الفؤادَ حضورُها ... أنتِ الفؤادْ
وصبيّةً مملوءةٌ بالكبرياءِ جذورُها ... أنتِ المرادْ

راجعي نفسَكِ قليلاً ..و سأتركُكِ تقدّمينَ امتحانكِ .. لن أزعجكِ .. ولكنْ أرجوكِ أن تقابليني في آخرِ يومٍ منهُ .. سأكونُ منتظراً تحتَ شجرتنا أمامَ مبنى البريدِ .. تعالي و لا تتردّدي .. حتّى و إنْ لمْ تغيّري موقفكِ الأخيرَ , تعالي و ليكنْ فراقُنا بوداعٍ .. أُحبُّكِ , وحبُّكِ دوائي وزادي و مائي ..

25 / أيّار / 1987 رعد .) .

في أوّلِ أيّامِ العطلةِ الصيفيّةِ , أمثلُ أمامَ لجنةِ التحقيقِ .. يعرّفونني على أنفسهم وقد جلسوا قبالتي وعاملوني باحترامٍ في البدايةِ .. كانَ أحدَهم الموجّهُ الاختصاصيُّ , الأستاذ فاضل , والثاني مندوبُ نق ابةِ المعلّمينَ ,الأستاذ ممدوح , والثالثَ رئيسُ اللجنةِ , مسؤولُ الرقابةِ الداخليّةِ , الأستاذ عماد . وكانَ هذا الأخيرُ يتفقّدُ بينَ يديهِ أوراقاً حمراً و بيضاً عرفتُها فورَ مشاهدتِها , بينما بدأَ الأستاذُ فاضل حديثَ هُ بصوتٍ

هادئٍ و أدركتُ فوراً أنّهُ يحاولُ تلقيني ما يتوجّبُ عليَّ قولُهُ :

- " أستاذ رعد , أعرفكَ جيّداً من خلالِ الدروسِ التي حضرتُها في صفوفكَ .. أنتَ متميّزٌ جدّاً ومعطاءٌ .. وعرفتكَ خلوقاً و مهذّباً و أستبعدُ أنْ تكونَ هذه الشكوى محقّةً , بل أعتقدُ أنّها نوعٌ من التلفيقِ .. "

يقاطعهُ الأستاذُ ممدوح قائلاً وهو يشيرُ إلى الرسائلِ متابعاً أسلوبَ التلقين :

- " أستاذ رعد , هذا لم يحدثْ في مدارسنا سابقاً ولم نعهدْ مثلهُ أبداً .. وأنا لم أتشرّفْ بالتعرّفِ إليكَ لكنّني سألتُ عنكَ مسؤولَ النقابةِ في مدرستكم , الأستاذَ أيمن , وكانَ جوابُهُ إيجابيّاً جدّاً : أنتَ متفانٍ في عملكَ و معطاءٌ و مهتمٌّ بدروسكَ بالشكلِ الأمثلِ , و نتائجُ طلاّبكَ

مرموقةٌ , و لقدِ استهجنَ أنْ يُنسبَ إليكَ هذا العملُ ."

أمّا رئيسُ اللجنة الذي كانَ منهمكاً في مراجعةِ إحدى الرسائلِ , رفعَ ناظريهِ عنها فجأةً وقالَ بلهجةٍ أبويّةٍ :

– " أستاذي الكريمَ .. لدينا هنا شكوى بحقّكَ مفادُها أنّكَ تلاحقُ طالبةً مخطوبةً ,أو بالأحرى, متزوّجةً , و تحرّضُها على فسخِ خطبتها و التمرّدِ على أهلها , هذا بعدَ أن تسبّبتَ في فصلها من المدرسةِ .. ومن واجبنا البحثُ في هذه الشكوى أكانتْ محقّةً أم لا . فما هوَ ردُّكَ ؟

كنتُ أتوقّعُ مثلَ هذه الأسئلةِ لكنّني لم أكنْ أعلمُ أنَّ اللجنةَ ستكونُ لطيفةً إلى هذا الحدِّ .. فقلتُ بلهجةِ الواثقِ :

– " أيّها السادةُ الزملاءُ .. تعاطفكم معي مشكورٌ ومقدّرٌ من قبلي .. و حرصُكم على مدارسنا أمرٌ محمودٌ .. لكنّكم لم تتطرّقوا إلى الموض وعِ

بشكلٍ دقيقٍ .. و سأُريحكم من هذا الغموضِ ..
أعترفُ بمسؤوليّتي الكاملةِ عن هذا الأمرِ , فأنا
كاتبُ هذه الرسائلِ , و أنا مرسلُها.. ولستُ نادماً
على هذا قيدَ شعرةٍ , و لن أنكرَ التهمَ الموجّهةَ
إليَّ .. "

قاطعني الأستاذُ ممدوح قائلاً بلهجةٍ محذّرةٍ :

– " إنّكَ ترسمُ بهذا الخطوطَ الأولى لنهايتكَ .. "

وتدخّلَ رئيسُ اللجنةِ :

– " دعْهُ ! من فضلكَ . "

وقامَ الأستاذُ فاضل ليقتربَ من رئيس اللجنةِ ويهمسَ :

– " سأكونُ في مكتبي ! "

فقلتُ :

– " اتّخذوا الإجراءَ الذي ترونهُ مناسباً ! "

فقالَ الأستاذ عماد بعدَ أنِ استلَّ ورقةً بيضاءَ :

– " تفضّلْ .. اكتبْ ذلكَ خطيّاً .. دوّنْ هنا كلَّ ما
تريدُ حولَ الشكوى .. و عندما تنتهي وقّعْ

باسمكَ الثلاثيِّ و سلّمني الورقةَ في المكتبِ المجاورِ .. هذه صورةٌ عن الشكوى بخطِّ يدِ والدِ الفتاةِ .. اقرأْها أوّلاً . "

ثمَّ غادرَ الغرفةَ وتركني مع الأستاذ ممدوح الذي وقفَ بدورهِ و قالَ و هوَ يهمُّ بالانصرافِ :

- " لقد حاولنا تجاهلَ الأمرِ , و خاصّةً بعدَ أنْ علمنا أنَّ الفتاةَ ستتزوّجُ قريباً .. على كلِّ حالٍ لا زالتْ لديكَ الفرصةُ لتنكرَ هذه التُّهَمَ حرصاً على وظيفتكَ .. أمّا بالنسبة لوالد الفتاةِ فلا أعتقدُ أنّهُ سيعودُ لمراجعتنا لأنّه أطفأَ نارَ غضبِهِ بتقديمهِ هذه الشكوى .. وإلاّ سنكونُ مضطرّين إلى منعكَ من التدريسِ في أحسنِ الأحوالِ .. و قدْ تحالُ إلى عملٍ إداريٍّ هنا في المديريّةِ بعيداً عن الطالبات , و قد يتمُّ طردُكَ من الوظيفةِ لعدمِ الكفاءةِ ! "

- " وماذا لو استقلتُ ؟ "

– " ستقبلُ استقالتكَ ولن تحصلَ على أيِّ تعويضٍ ولكنّكَ بذلك ستحفظُ ماءَ وجهكَ ! "

قرأتُ الشكوى ثمَّ كتبتُ :

(أعترفُ بأنّني كتبتُ هذه الرسائلَ ليسَ بنيّةِ تحريضِ الفتاةِ على أهلها و إنّما لأنني أحببتُها و أردتُ تخليصَها من العذابِ ومن قسوةِ أهلها ومجتمعها .. و أتحمّلُ المسؤوليّةَ كاملةً حيالَ ذلكَ .)

سلّمتُ الورقةَ إلى رئيسِ اللجنةِ فقرأَها بإمعانٍ وقالَ :

– " لسنا أصحابَ القرارِ بل الهيئاتُ العليا , لكنّني أعتقد أنَّ سببَ استبعادُكَ من الوظيفةِ .."

تُربِّتُ ســـارة على كتفي وهي تقولُ:

–" رعد .. هكذا أنتَ دوماً , كلّما جئنا إلى الطّبيبِ تتركني لتدخّنَ تحتَ هذه الشجرةِ . "

–" هلْ عاينكِ الطّبيبُ ؟ "

–" نعم , وطلبَ صوراً شعاعيّةً .. هيّا , علينا أن ننجزَ ذلكَ قبلَ أنْ نتأخّرَ أكثر .. ما رأيكَ أن نشتريَ

طعاماً جاهزاً اليومَ , فالأولادُ يحبّونَ ذلكَ , ولن
يكونَ لديَّ الوقتُ الكافي للطبخِ ؟ " ...
كلّما عدتُ من عجمانَ أرتادُ هذا المكانَ ..أتلمّسُ الشجرةَ
فلَتوهُ في الدّوّامةِ نفسِها,عاماً بعدَ عامٍ , و لا أدري إلى متى..

مع تحيات يحيى الصوفي

مؤسس ورئيس تحرير موقع

القصة السورية

SyrianStory

﴿ كافّةُ الحقوقِ محفوظةٌ للكاتب ﴾